مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ يسٓ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة يس

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة يس

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾

ابتدأت سورة يس بِمْثِلِ ما ابتدأت به بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كسورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة العنكبوت وسورة الروم. قال تعالى ﴿يس﴾ وهما حرفان من الحروف المقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام حرفين من الأحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العجيب، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعد تلك الحروف المقطعة. وأَمَّا عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، نؤمن بها ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وتُلتمس فوائده. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر، وهناك من اجتهد في معنى ودلالة ﴿يس﴾ فقيل إن المقصود بها، يا محمد، وقيل يا إنسان، وقيل إنه قسم على أنه اسم من اسمائه سبحانه وتعالى. وقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى تفاصيل ذلك[1] والأقرب أنها من الحروف المقطة.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٩٨/١٩)

ومن فوائد ذلك ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى: بأنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقِرُّ بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[١] ومن فوائد الحروف المقطعة شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[٢] مما يبين أن من أوجه البدء بها هو لشد الانتباه والأذهان لما بعدها من البيان، لما في ذلك من التشويق للمتابعة.

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بَقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، ليُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[٣] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم والمتلقي والمدعو والموعوظ لما يُراد تعليمه إياه ووعظه وإرشاده ودعوته إليه، أو إخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

بعد أن افتتح الله تعالى سورة: يس ببعض الحروف المقطعة بقوله عَزَّ وجل ﴿ يسٓ ﴾ لإيقاظ الأذهان وشد الانتباه إلى إعجاز القرآن العظيم، وبما يثبت أنه من عند الله العزيز الحكيم، أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، يُقسم الله تبارك وتعالى بعد ذلك بالقرآن ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي: المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. والحكيم الذي أُحكمت آياته، فلا يعتريه التناقض والخلل في نظمه ومعانيه، وأحكامه وتشريعه، ولا في أي شيء منه. وفي هذا جلال التعظيم، وعظيم التمجيد والتزكية للقرآن الكريم. بل ومن معجزاته أن المسلمين تلقوه بالحفظ في الصدور جيل بعد جيل، والعناية به في كل مكان وزمان وحين. ومن معجزاته أنه شفاء للمريض والسقيم، وأنه قوة للقلوب، ومثار للخشوع، وذلك لِمَا فيه من الآيات والذكر الحكيم. فالحمد لله تعالى على نعمة القرآن العظيم.

ثم يقرر تبارك وتعالى رسالة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بما سبقه من قسم، بأن محمداً صلى الله عليه وسلم واحد من المرسلين الذين تم تكليفهم بالرسالة ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ إنك أيها النبي لمن

---

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١)

(٢) المرجع السابق (١٠٩/١)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧/١)

المرسلين بما أوحينا إليك من القرآن الحكيم، والتشريع العظيم. وأيضاً إنك ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي: على المنهج القويم، والشرع الحنيف. وهذا مزيد من التزكية بأن رسوله صلى الله عليه وسلم على المنهج القويم المعتدل، والشرع والهدي المستقيم. مما يفيد أنه على استقامة في كل شأن، وأن من تبعه وأخذ بهذا الدين فقد استقام أمره في الدنيا والآخرة. وأن هذا الدين هو الدين المتوافق مع الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها. وأنه الدين الذي تستقيم به النفوس. وأنه الدين العدل فيما هو بين العبد وبين ربه عَزَّ وجل، وفيما هو بين العباد وبين أنفسهم في علاقاتهم، وأحكامهم، وأنه الضابط لشؤونهم ولتصرفاته ولعلاقاتهم، ولأنفسهم من كل وجه.

ثم يزداد تعظيم القرآن الكريم، وتعظيم كل ما نزل من الوحي الذي تمثله السنة النبوية، فيقول تبارك وتعالى ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فهذا القرآن العظيم تنزيل ممن اتصف بكمال العزة ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ﴾ الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة ﴿ٱلرَّحِيمِ ﴾ المتصف بالرحمة لجميع الكائنات، ولجميع العباد بما أنعم به عليهم من النِّعَم، وبحلمه عليهم، وبرحمته التي منها قبول توبة من تاب وأناب إليه تبارك وتعالى، والرحيم بعباده المؤمنين. مما يبين أن هذا القرآن هو رحمة من العزيز الذي ينتقم ممن امتنع عن طاعته عَزَّ وجل.

ثم ذكر تبارك وتعالى الهدف والغاية من بعثته صلى الله عليه وسلم للناس أجمعين، فقال تبارك وتعالى ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ لِتُحَذِّرَ وتُنذر به أيها النبي ﴿قَوْمًا﴾ وهم العرب ﴿ مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾ لم يُنذر من سبقهم من الآباء بنذير من أنفسهم، وفي تخصيص آبائهم ما يدل على أنهم الأقربون، قال القرطبي رحمه الله تعالى: ثم يجوز أن تكون العرب قد بلغتهم بالتواتر أخبار الأنبياء، فالمعنى لم يُنذروا برسول من أنفسهم، ويجوز أن يكون بلغهم الخبر، ولكن غفلوا وأعرضوا ونسوا(١) قال الشوكاني رحمه الله تعالى: ويجوز أن يراد ما أنذر اباؤهم الأقربون لتطاول مدة الفترة(٢) ونتيجة لذلك ﴿ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ فهم في جهالة وغواية عن حجج التوحيد وأدلة البعث، فتراكمت عليهم الجهالة. مما يفيد أن بعثته صلى الله عليه وسلم عناية ورحمة من الله تعالى، بإيقاظ الناس من غفلتهم، وإقامة الحجة عليهم، ومنهم العرب خاصة. مما يفيد أهمية تعاهد النفس، والقوم، والمجتمع بالتذكير والمواعظ حتى لا تصيبهم الغفلة، التي هي انشغال الذهن عن الشيء، ثم لا يتذكره، باعتباره غائب عن بؤرة الفكر والعقل.

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٦/١٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٦٠/٤)

ثم يخبر الله تعالى بحكمه فيمن امتنع وكفر، وذلك بما قضاه عليهم بالطبع على قلوبهم بالكفر، نتيجة كفرهم وعنادهم للرسول صلى الله عليه وسلم، وما جاءهم به من الحق ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لقد قضينا فيهم بالحق ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ ﴾ وهو الحكم والقضاء العدل ﴿عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بأن أكثرهم، والغالب منهم لا يؤمنون بالحق الذي جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم. فجزاء لهم على تماديهم في الكفر والعناد، أن كان عقابهم بالطبع على قلوبهم بالكفر.

ثم يصف تبارك وتعالى حال وهيئة ما طبع به على قلوبهم ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ فجعل ربنا تبارك وتعالى حالتهم وهيئتهم وصورتهم كمن غُلَّت أعناقهم، فجعل في أعناقهم أغلالاً منتهية ﴿إِلَى ٱلْأَذْقَانِ ﴾ أي: إلى مجتمع اللحيين. فصورتهم وهيئتهم كمن جُمعت أيديهم تحت أذقانهم، فهم مغلولون بتلك الهيئة. والأغلال مفردها غل، وهو ما يُربط ويُغَلُّ به العنق، وهو للعنق بمنزلة القيد للرجل، ومن قوتها وعظمتها فإنهم لا يقدرون على الالتفات والانعطاف ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ أي: رافعين رؤوسهم من شدة الغل الذي لف أعناقهم، فلا يستطيعون خفضها وارخائها، مع غضهم وخفضهم لأبصارهم. لأن الْمُقمَح هو الغاض بصره بعد رفع رأسه. فهم مغلولون عن كل خير، فلا يبصرون الحق، ولا يهتدون إليه. جزاء وفاقاً لكفرهم وعنادهم. فَخُتِمَت نهايتهم بأن يموتوا كافرين، عقوبة من الله تعالى لهم، نتيجة تماديهم وإسرارهم على الكفر. مما يفيد أهمية لزوم الحق، والأخذ به، والخشية من أن يطبع الله تعالى على القلب عقوبة لمن تجرأ. وفي هذا بيان لحالهم بأدق مثال وصورة. مما يبين دقائق القرآن في الوصف، وتوصيل الرسالة والموعظة بأدق البيان وأظهره.

ومن شدة ما نالهم من العقاب أن الله تعالى منع عنهم الحق بما يحجزهم عنه بأقوى الحواجز، فقال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أي: حجزناهم ومنعناهم عن تحصيل الإيمان، كمن ضُرب من أمامه ومن خلفه بسد، فهم بمنزلة من سُدَّ عليه الطريق ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾ أي: من أمامهم حاجز يحجزهم عن بلوغ الإيمان والوصول إليه ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ وكذلك بمثل ما جعلنا من أمامهم من الموانع جعلنا من خلفهم سداً يمنعهم من بلوغ الإيمان وتحصيله. مما يدل على شدة العقوبة، التي تفضي إلى شدة العقاب في الآخرة. بل بلغت بهم العقوبة أن وصلت إلى بصائرهم ﴿ فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أي: تم تغطيت أبصارهم وبصائرهم ﴿ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ فهم لا يبصرون سبيل وطريق الهدى، وبالتالي لن يهتدوا، فيموتوا على كفرهم، جزاء وفاقاً لمحاربتهم الحق من

الله تعالى، فتصدوا لرسوله صلى الله عليه وسلم، والتكذيب بالقرآن، ورميه بما لا يليق به، من السحر والكهانة. مما يبين افتقار العبد لربه في رؤية الحق والأخذ به، وأن المعاصي تُبعد العبد عن الحق بقدر الغور فيها. كما يبين ذلك عظيم قدرة الله تعالى. وأنه على كل شيء قدير.

ومن بلاغة البيان أن قوة المانع تستوعب، منعهم عن الإيمان، ومنعهم عن أذى الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنعهم عن كل سبيل يحقق لهم مرادهم من الانتصار على دين الله تعالى، وعلى كتابه القرآن العظيم، ورسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى المؤمنين. فيكون الخذلان قد احاط بهم من كل جانب. مما يبين قدرة الله تعالى، فإذا أراد منع شيء عن شيء منع البصائر، وجعل بينها وبين مرادها من الموانع العظيمة ما هو كالسد الضارب في الأرض، والشامخ في الارتفاع، وغشى الأبصار والبصائر بما يجعلها في جهل عما هو أمامها. بمنع الرؤية، ومنع التفكير والأفكار التي تحقق مراد الباطل وأهله. فإذا أراد الله تعالى نُصرة فرد أو جماعة أو أمة يسر لها سُبُل النصر، وعَطَّل على العدو جميع قدراته وإمكاناته. وهذا مما يقوي إيمان المؤمن، ويدفعه إلى التوكل، وأن يعتمد على ربه تبارك وتعالى في كل أمر وشأن.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالنتيجة فيما يخص دعوتهم للإيمان، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ فقد استوى عند هؤلاء المعاندين المشركين إنذارك وعدم إنذارك، لأنه لن يحصل منهم الإيمان البتة. بما يفيد لا تنشغل بهم عن غيرهم، بل استمر في دعوتك وانطلق فيها مع بقية العباد. مما يفيد الداعية: أن إذا وجد الرفض بعد تكرار المحاولة والاجتهاد، فعليه أن يمضي قُدُماً مع الغير في الدعوة، ولا يقف ويربط نفسه مع الرافضين المعادين له.

ثم يخبر تبارك وتعالى بمواصفات الذين يقبلون الحق، ويذعنون له، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴾ فبدأت الآية الكريمة بحصر المنتفعين بالإنذار وتعيينهم ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ بما يفيد أن الجديرين بالإنذار، هم المقتفين لك فيما تنذرهم منه، المنتفعين به، فهم الْمُقْبِلُون عليك وعلى ما تنذرهم به، لأنهم يريدون الانتفاع من غير تكبر ولا استنكاف، فيعتنون ويهتمون به.

فإنما ينتفع بإنذارك وما تنذرهم منه أولئك الذين اتصفوا بصفتين: الصفة الأولى: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ ﴾ أي: الذي يذعن للحق. فهو الذي إذا ذُكِّر بالحق اتبعه وأخذ به، ولزمه، وعلى رأس الذكر القرآن الكريم، فإذا تلاه أو تُلي عليه اتعظ به. وبالتالي إذا سمع الحق أذعن له، ولم يتكبر عليه، بل يقصده بالاتباع والامتثال. مما يبين أن البعض من الناس ينفر من الذكر إذا سمعه، لأنه لا يريد إلا اتباع شهواته

وشبهاته. فهو في عداء مع الحق. بينما الذي ينتفع بالمواعظ هو الذي يقبل الحق حين يسمعه، ولا يكابر ولا يزايد عليه، بل يستسلم ويذعن له.

والصفة الثانية: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ وهو الذي امتلأ قلبه بالتقوى، فلا يراقب إلا ربه تبارك وتعالى، حتى وإن لم يشاهده أحداً من الخلق، فهو يراقب الله جَلَّ جلاله وليس العباد. فهو صاحب القلب الممتلئ بالخوف من الرحمن أينما حل وكان، وفي أي شيء كان، فهو يهاب ويخاف ربه عَزَّ وجل أينما كان وحيثما حل وارتحل، وإن لم يره أحد من الخلق. فهذا الذي يتجاوب مع التذكير ويقبله ويُقبل عليه، لأنه الشخص المتجاوب والمتفاعل مع الحق، فإذا عرف الحق تمسك به، واتبعه، ولم يخالفه، فهذا له البشارة بالخير العظيم ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ فبشره بأن الله تعالى يغفر ذنوبه، ويمحوها، ويسترها. وكذلك بشره مع المغفرة بالثواب العظيم ﴿وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ وهو دخول الجنة، لأنه أكبر وأعز ثواب يناله المؤمن من ربه تبارك وتعالى. مما يبين أهمية الخشية، ومنزلتها، في السر والعلانية.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢
وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا
بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ
أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ
١٧ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ
طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان عظمة قدرة الله سبحانه وتعالى على البعث بعد الموت، وذلك بإثبات حصول البعث بعد أن يموت هذا الإنسان، فيعيده إلى ما كان عليه قبل موته، فيوضح ويُجَلِّي ذلك بتقريره وتأكيده، بأنه عَزَّ وجل يحي الموتى بعد فناء أجسادهم، ويسجل عليهم أعمالهم، ويحاسبهم على ما كان منهم ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ وبدأ البيان بالإعلام والإخبار بضمير المتكلم، الذي يفيد التفخيم والتعظيم ﴿إِنَّا﴾ ومن فوائده: إظهار القدرة الربانية من خلال التفخيم والتعظيم. ثم أكد ذلك التفخيم بتفخيم آخر، إذ ورد بعده مباشرة ضمير العظمة ﴿نَحۡنُ﴾ بما

يفيد المزيد من التعظيم والتفخيم، والتأكيد الجازم بما سيخبر به عَزَّ وجل من إحياء الموتى، وكتابة جميع أعمالهم، وإحصائها عليهم. ثم أورد بعدها أيضاً نون المتكلم التي تَصَدَّرَت الإحياء ﴿ نُحْيِ ﴾ فتتالت ثلاث ضمائر لتعطي كمال العظمة والتقديس والهيبة الربانية. إذ نسب عَزَّ وجل الإحياء والإعادة إليه تبارك وتعالى بثلاث ضمائر متتالية، لإفادة التفخيم والتبجيل والعظمة وكمال القدرة، والتأكيد على فعل الإحياء بعد الموت، وذلك بالبعث والنشور والحساب والجزاء. فإن الإحياء للموتى أمر مؤكد لا شك ولا ريب فيه.

ثم عَزّزَّ سبحانه وتعالى ذلك بما يتبعه من الحساب، الذي هو تقييد كل ما يكون منهم ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ﴾ ونسجل عليهم ما أسلفوا مما عملوه في الدنيا، فقدموه لأنفسهم في الآخرة، وورد الذي قدموه وآثارهم عامة، لتستوعب وتستوفي جميع ما يقدمه الإنسان من خير أو شر، وما يقدمه من كفر أو إيمان، وما يقدمه من الطاعة بعمل الصالحات، وما يرتكبه من العصيان. بل حتى ما تركوه وراءهم بعد موتهم ﴿ وَءَاثَـٰرَهُمْ ﴾ ستكتب آثارهم، لِمَا في الآثار من استمرار النفع، أو استمرار الشر. فمن يترك عملاً صالحاً يُسْتَنُّ به من بعده، أو ينفع به غيره من بعد موته، أو يترك شراً، فَيُسْتَنُّ به من بعد موته، أو ترك الأعمال المهلكة لغيره من بعده. مما يفيد أن الميت يموت، وتبقى آثاره تلاحقه من خير أو شر. مما يعزز عند المؤمن أن يكون قدوة صالحة في كل شيء يمكن أن يكون منه، وأن يترك خلفه صلاحاً يُستفاد منه، ويُقتدى به، وان يحذر من أن يكون قدوة سيئة، أو يترك خلفه فساداً، ينشغل غيره به. اللهم اجعلنا ممن لهم آثار وقدوات صالحة، بفضلك وكرمك يا أكرم الأكرمين.

ثم يقرر ويؤكد سبحانه وتعالى قوة ضبط أعمال العباد بدقة، حتى أنه لا يفوت منها شيء أبداً ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ وكل شيء من أعمال العباد مسجله ﴿ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ كتاب مبين وموضح لكل شيء من أعمال العباد، ليشمل ذلك اللوح المحفوظ، وصحائف العباد التي يستلمونها، فالمؤمن يستلم صحيفته بيمينه، والكافر يستلم صحيفته بشماله. قال مجاهد وقتادة وابن زيد رحمهم الله تعالى: أراد اللوح المحفوظ، وقالت طائفة: أراد صحائف الأعمال[1] فكلا المعنيين حاصل. فقد جمعت دلالتها كلا الأمرين.

ومن جميل البيان ودقته أن سماه الله تعالى ﴿ فِىٓ إِمَامٍ ﴾ لإفادة أنه يتقدمهم، فكل أعماله تتقدمه، فتسير به إلى ما يستحق من الجزاء. وكذلك أنه ﴿ مُّبِينٍ ﴾ واضح، وموضح لكل نفس ما كسبت من الخير والشر. حتى يكون الحساب عدل من الله تعالى للعباد، ويلحقه الجزاء بما يستحقون، وفق ما وعد وبين سبحانه

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤/٣٦٢)

وتعالى في كتابه القرآن الكريم، وفي سنة سيد المرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. مما يحذر الكافر والعاصي، ويبشر المؤمن المطيع بجزاء طاعته التي تنتظره.

وفي ذلك بيان القهر والإذلال لكل من يعاند ويكابر، وأنهم مغلوبون على أمرهم وعنادهم، أفراداً وجماعات. وأنهم محاسبون ومجزيون على ما كان منهم. بل وفيه توبيخ لمن أنكر البعث والحساب والجزاء، وعدم الاتعاظ بما يرون ويشاهدون من الدلائل والآيات العظام. وفي ذلك طرد أوهام من حصر الحياة في الدنيا فقط. فتوهم بأن الحياة الدنيا هي الحياة لا غيرها ولا بعدها حياة. وفي ذلك إبطال لفهمهم الخاطئ، وإنذار لهم، ودعوة لهم بالتفكر والتأمل والتبصر. وفيه إيقاظ وتنبيه لمن أنكر البعث، وتحذير وموعظة لهم.

ثم تزداد الموعظة للمكذبين من رب العالمين ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ يوجه تبارك وتعالى الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن يضرب لقومه وللناس عموماً، مثلاً من أصحاب القرية حتى يعتبروا بذلك. حيث ذهب إليهم المرسلون لدعوتهم إلى الإيمان وإلى توحيد الله تعالى، وترك عبادة الأوثان. فكذب أهل القرية أول رسولين ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ﴾ فقد أرسلنا لهم اثنين من المرسلين ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فبادروهم بالتكذيب ﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ فَشَدَدنَا الإثنين وقويناهما وآزرناهما برسول ثالث. مما يدل على شدة نكرانهم، وقوة تكذيبهم، فأنكروا الرسالة، وتمادوا في عنادهم وكفرهم، فأهلكهم الله سبحانه وتعالى.

وبدأ التوجيه الكريم لنبيه صلى الله عليه وسلم بفعل الأمر ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا﴾ أي: اذكر لهم تشبيها يكشف لهم وجه الشبه بين مسلكهم في الكفر ومسلك أهل هذه القرية وعنادهم. وذلك لِمَا في ضرب المثل من أثر وتأثير عميق على فكر ونهج الموعوظين به، إذ يكشف لهم به عاقبة البطر والتمرد على الحق. وكلمة ﴿وَٱضۡرِبۡ﴾ تفيد القوة، أي: قوة المثل في إيصال الموعظة والحق، وكشف الغي وإبطال الباطل، وليعطي قوة للمثل المضروب في تأثيره على فهم وفكر المخاطبين. وفي كلمة ﴿وَٱضۡرِبۡ﴾ ما يفيد الإيراد والإخبار، فأَوْرِد، وقُصَّ على المخاطبين ﴿مَّثَلًا﴾ والمثل هو البيان للحالة والصفة التي يمثلها أهل القرية مع المرسلين. وهو المثل المشتمل على التشابه معهم في طريقة تكذيب المرسلين، وإظهار التشابه بين الموعوظين به وبين مجريات وأحداث المثل نفسه. مما يفيد أهمية ضرب المثل للمُخَاطب، من أجل إيصال الحق له، وتعريفه وتعليمه الحقائق، وذلك بنقل الفهم الصحيح له من خلال مجريات المثل، ونقله من الجهل إلى العلم، ويفيد كذلك أهمية ضرب المثل في التعليم، وفي النصح والإرشاد.

ومن جميل البيان أنه لم يذكر اسم الرسولين، ولم يُعَيِّن مكان القرية، وذلك استغناء عما لا حاجة ولا فائدة للمتلقي في ذكره. ولا يُشغل ذهن الْمُخَاطَب بذلك. مما يفيد أهمية الاختصار في الوعظ على ما ينتفع الإنسان به، دون الخروج به وبفكره إلى ما لا نفع له فيه، وأن يجعل ذهنه متمركز في محور الهدف والقضية الأصلية. وهذه من مميزات أساليب القرآن الكريم.

وفي استخدام كلمة الضرب ما يشد الانتباه، لما في الكلمة من القوة والبيان والدلالة، واسم الإشارة ﴿ لَهُم ﴾ من قوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا ﴾ تشير إلى المتغطرسين المتكبرين من المشركين والكافرين عموماً، من الذين يرفضون الحق بطراً، ليدركوا خطر ما هم فيه، وأن الله تعالى قد يحرمهم ما هم فيه من النعيم بهلاكهم، وكذلك ليزداد المؤمنين بهذا المثل إيماناً وتوكلاً وطاعة وامتثالاً، وعلماً بتدبير الله تعالى، وبعقابه لمن عصاه. وأن ضرب المثل في القرآن الكريم يعطي الصورة المماثلة للحقيقة، مما يبين أهمية ضرب الأمثال في المواعظ والتعليم والإرشاد، فإنها مما يقرب المعنى والحال والصورة إلى الذهن، وليس هناك أبدع من أمثال كتاب الله تعالى في أسلوبه وألفاظه ومعانيه، وبلاغته، وأثر دلالاته، وقوة مخاطبته للعقل، وإثارة الحس والنفس نحو دلالاته ومعانيه. اللهم انفعنا بكتابك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم.

فاضرب لهؤلاء الكفرة الجاحدين ﴿ مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ حين جاءتهم رسلنا. وقد اختلف المفسرون في أسمائهم، ولكن الله تعالى لم يسم أحداً منهم، فالعبرة بالموعظة التي ضربها الله تعالى. ثم أورد عَزَّ وجل وصفاً لعدد المرسلين ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ ﴾ فقد أرسلنا لهم اثنين من المرسلين ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ فبادروهم بالتكذيب ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ فَشَدَدنَا الإثنين وقويناهما وآزرناهما برسول ثالث. مما يدل على شدة نكرانهم، وقوة تكذيبهم، وجرأتهم. ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ فقال الرُّسُل الثلاثة عليهم الصلاة والسلام ﴿ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ إنا إليكم من الله تعالى مُرسَلون، فجميعنا يحمل رسالة واحدة، مما يُجب عليهم أن يؤمنوا بهم وما معهم من الحق المبين.

وقد رَدَّ هؤلاء الجاحدون بما قاله الله تعالى عنهم ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ فأنكروا أنهم مُرسلون من الله عَزَّ وجل بحجة أنهم بشر مثلهم ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ فلستم متميزين عنا، كأن تكونوا من جنس آخر، بل أنتم من جنس البشر مثلنا. بما يفيد أنهم يريدون رسولاً من غير جنس البشر. ولو كان من غير جنس البشر لاستنكروا هيئتهم، ولما عرفوا

كلامهم. خاصة وأن المرسلين يأتون بالأدلة والبراهين، والآيات الدالة على أنهم مكلفون بالرسالة ممن يملك تلك البراهين والآيات العظيمة، سبحانه وتعالى.

ثم عضدوا النكارة الأولى بالزعم الكاذب ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ ﴾ فنفوا نفياً قاطعاً من أن الله تعالى قد أنزل على أولئك الرُّسُل شيئاً من الوحي. وبالتالي كيف عرفتم أن الله تعالى ما أنزل عليهم من شيء؟ وهل اطلعتم على الغيب؟ مما يبين أن قولهم كان جرأة وعناداً. لأنهم لو تأملوا الحجج والبراهين لآمنوا.

وفي نفيهم لِمَا أَنْزَل اللهُ تعالى، ونكرانهم له، بقولهم ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ ﴾ دليل على أن الله تعالى قد أنزل الأدلة عليهم، من خلال المرسلين الثلاثة عليهم الصلاة والسلام، لأن النفي والإنكار منهم لا يكون إلا لشيء جاء بها المرسلون، وهي الحجج والآيات. ولكن العناد والاستكبار على الحق جعلهم ينكرون الحق. كما يدل تسميتهم لله تعالى بأنه الرحمن ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ ﴾ ما يفيد أنهم يُقرُّون بوجود الله تعالى، ولكن الشرك والاستكبار جعلهم لا يتأملون ما جاء به المرسلون من الحقائق. مما يفيد أهمية التأمل والتدبر قبل الجواب والرد على الغير.

وقد أكدوا زعمهم وردهم بتكذيب المرسلين عليهم الصلاة والسلام، قائلين ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴾ فأنتم كاذبون في دعوى ما تدعون من الحجج. بل من قوة تكذيبهم أن ورد البيان بأسلوب التأكيد والحصر والقصر ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴾ فقد أفادت ﴿إِنۡ﴾ تأكيد تكذيبهم للمرسلين، وأفادت ﴿إِلَّا﴾ حصر وقصر التكذيب على جميع البراهين، بنفي الحقيقة عنها. مما يفيد عزمهم المؤكد على رد دعوى المرسلين لهم بالحق والهدى الذي جاؤوا به من الله سبحانه وتعالى.

وهنا أجابهم المرسلون بما قاله اللهُ سبحانه وتعالى عنهم ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴾ فإن كذبتم بنا، فإن ربنا يعلم ويشهد إنا مُرسَلُون إليكم برسالته، بما يفيد لا يضرنا نكرانكم لنا، وتكذيبكم لِمَا جئنا به إليكم من الآيات. ثم عزز المرسلون عليهم الصلاة والسلام قولهم الأول بقولهم الآخر ﴿ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ فالذي يجب علينا هو تبليغ رسالة ربنا سبحانه وتعالى إليكم تبليغاً واضحاً ظاهراً، وليس علينا غير ذلك. بما يفيد: لا منفعة نأخذها منكم على تصديقكم وإيمانكم، ولا إثم يلحقنا من كفركم، فإن اهتديتم فلأنفسكم، وإن كفرتم فعليكم يقع العذاب والجزاء. مما يبين أن مسؤولية المرسلين هي في الإبلاغ المبين، وهي هداية الدلالة على الحق، أما دلالة التوفيق فليس لهم فيها سبيل.

فالغاية من ضرب الأمثال للناس هو ليحققوا بها في أنفسهم ما يتذكرون به الحقيقة التي توصلهم إلى طاعة الله تعالى، وإلى ما ينفعهم، باتباع نبيه عليه الصلاة والسلام، وذلك من خلال مفهوم الأمثال المضروبة لهم، وما تُوصلهم إليه تلك الأمثال من الحقائق والمعاني بأدق بيان، وأوضح صورة، فيتعظوا ويعتبروا. لأن في ضرب الأمثال ما يقرب الحقيقة والمعاني في أدق صورة لها. مما يبين أن منهج الإسلام قائم على الحقائق والإقناع، بتوضيح الصورة والواقع بأدق الأساليب، والتي منها ضرب المثل لمعرفة وإدراك الحق والأخذ به وترك الباطل.

فلم ينتفع أهل تلك القرية بما وعظهم به المرسلون، مما جعلهم ذلك العناد والاستكبار يواجهون المرسلين بمزيد من التكذيب، والتأكيد والإصرار ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ قالوا: إنا تشاءمنا منكم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾ والتطير هو التشاؤم من دعوة المرسلين لهم. بما يفيد أنه ما رأيناكم بما جئتم به إلا وقد أصابنا الشر. والتطير في اللغة، هو أن يقال: تطير فلان؛ واطَّيَّر، أي تشاءم. والأصل هو رَدّ الخير والشر لمسار الطيور وأصواتها، سواء في المضي أو التَّوَقف. وقد جاء النهي عن التطير في قوله صلى الله عليه وسلم (لا عدوى ولا طيرة) [1] فهو رد الخير والشر إلى غير أصله، فيردونه بما يرون أو يسمعون أو يعلمون، سواء من الطير أو غيره. فربما ترك خيراً لما رأى من طير أو حدث، أو سماع صوت أو خبر. فهو إعادة الأشياء إلى غير أصلها، وفي هذا ما يبين عظيم انحراف عقل المتطير، وانحرافه في عقيدته، مما يبين قوة حاجتهم الماسة لدين الله تعالى.

وقد قصدوا بالتطير: التشاؤم من دعوة المرسلين لهم. بما يفيد أنه ما رأيناكم بما جئتم به إلا وقد أصابنا الشر. بأن حصل لهم وقوع ما يكرهون. وهي دعوة وتهمة وبهتان منهم للمرسلين. مما يفيد أنهم لم يجدوا حجة يدفعون بها غير الخيال والوهم الكاذب، المبني على الجهل. فجعلوا نعمة الله تعالى عليهم موطن الشر، وجعلوا طريق سعادتهم شؤم، فازدادوا شراً على شرهم الذي هم فيه من الشرك. مما يدل على أن الاستعلاء والتكبر يحجب الخير برفضه، بسبب استيلاء الاستعلاء والتكبر على النفس من أن تقبل الحق من الغير. فإنهم قد نسبوا سبب البلاء إلى المرسلين. وفي هذا ما يبين عظيم انحرافهم الاعتقادي، وأنهم بهذا الاعتقاد من التشاؤم يشوهون صورة ومسلك وجود المرسلين.

ثم عمدوا إلى التهديد ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ لئن لم تتوقفوا وتنتهوا عن دعوتكم لنا ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ ليحصل لكم منا الرجم بالحجارة، فنقتلكم بأشنع القتل، وذلك برجمكم بالحجارة ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ وليصيبنكم منا عذاب موجع أليم من شدة وقوعه عليكم. وهو مبالغة في التهديد، حيث

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٤/٤٦-٤٧) برقم (٥٧٥٦)

أضافوا التهديد ونتيجته لأنفسهم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بما يفيد التعذيب الأليم، والغير محدد نوعه، ليشمل كل تعذيب يمكنهم إيقاعه بالمرسلين عليهم الصلاة والسلام. مما يبين شدة نفورهم من الحق الذي جاء به المرسلون. وشدة محاربتهم للحق، والطعن فيه بكل وجه.

فأجابهم المرسلون عليهم الصلاة والسلام ﴿قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ أي: أن شؤمكم معكم، مقترن بكم، فهو مردود عليكم بسبب ما أنتم عليه من ضلال الشرك والإصرار على الكفر ﴿قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ بما يفيد أنه متلبس بكم، وملتصق بكم، وبالتالي لسنا نحن مصدره، لأنه لا يمكن أن يحصل من رسل الله تعالى إلا الخير. فإنه من جهة أنفسكم، ففتشوا عن ذلك، لتجدوا السبب والعلة. ثم طرحوا عليهم سوء جهلهم وفهمهم بسؤال استعتاب ولوم من سوء تقديرهم لما ذكروهم به ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُم﴾ أئن ذُكرتم بالحق تطيرتم بنا، وبما جئناكم به من الحق والهدى المبين الواضح؟ فإذا وُعِظتم وذُكِّرتم بالله تعالى قلتم هذا القول من التهديد والوعيد لنا بالقتل والرجم، ثم قال المرسلون لهم ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ بل الصواب أنكم قوم قد اعتدتم المعصية، والمبالغة فيها، لأن الإسراف يفيد المبالغة في مخالفة الحق، فهو وصف عام يشمل جميع أنواع الإسراف في الفساد، من الكفر، ومن الشرك، وبقية المعاصي، والعناد، ورد الحق، والمبالغة في الطعن فيه، ووصفه بالشؤم. بل بدأ رد المرسلين لهم بدلالة حرف ﴿بَلۡ﴾ الذي أفاد إبطال ما سبق من قول المشركين وتهمتهم للمرسلين، وإثبات ما بعده من الحقيقة والصواب، من أنهم قوم اعتادوا المعصية، والمبالغة فيها.

وفي هذا درس وعبرة، يُستثار بها العقل، ويُستنهض بها الفكر، من خلال المثال الحاصل أمام المخاطبين، كما يبين هذا أن منهج الله تعالى قائم على الحق والحقيقة التي لا ينكرها إلا جاحد للحق والحقيقة. كما يبين هذا أهمية ضرب المثل في تصوير الحقيقة وتقريبها من ذهن المتلقي والْمُخَاطَب، مع كشف غمة الجهل، وتعليم الحقيقة، وإقامة الحجة بالبرهان والدليل المحسوس بالحواس. كما يكشف هذا المثل المضروب من الله تعالى لعباده أن على الإنسان الذي أكرمه الله تعالى بالعقل أن يفكر في الحقيقة، ولا يُقدم الفاني على الباقي، فيقدم زينة الحياة الدنيا القصيرة على نعيم حياة الآخرة المستديم، الذي لا ينقضي ولا يزول. اللهم إنا نسألك التوفيق والثبات على الحق الذي نظفر به على نعيم الآخرة، إنك سميع عليم، مجيب، رحمن رحيم.

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن

دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان شيوع ما عَزَمَ وهَمَّ به كبراء الكفرة من قتل المرسلين الثلاثة، فقد تناقله الناس بينهم، حتى سمع بهم رجل مؤمن من طرف المدينة ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ أي: أن رجلاً من أبعد جهة وطرف عن وسط المدينة، وهو آخرها، جاءهم ناصحاً لهم بأن يتبعوا المرسلين. مما يدل على شيوع وانتشار خبر إرادة قتل المرسلين عليهم السلام، حتى وصل الخبر أطراف المدينة، فقيض الله تعالى ذلك الرجل الناصح الأمين ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ ﴾ وكان من حرص هذا الرجل الناصح أنه جاء ﴿ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ من طرفها، بل من أبعد أطراف المدينة لأن دلالة ﴿ أَقۡصَا ﴾ تفيد أبعد أجزاء المدينة، والطرف هو النهاية. بل من حرصه أنه جاء إليهم ﴿ يَسۡعَىٰ ﴾ أي: مسرعاً، فكان حثيث الْخُطَى في مشيه، لشدة خوفه على المرسلين عليهم السلام، لِمَا عَلِمَهُ من خبر: عزم كبراء وأعيان المدينة على قتلهم المرسلين عليهم الصلاة والسلام. ودل سعيه وجريه على أن الأمر قد تم اتخاذه بالقتل والتعذيب. إذ أفاد السعي ﴿ يَسۡعَىٰ ﴾ الإسراع في النصح قبل أن يحدث منهم الشر. مما يفيد قوة نصح هذا الرجل، وخوفه على المرسلين عليهم السلام، وحرصه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فجاءهم هذا الرجل ناصحاً لهم ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ فناداهم بنداء الطلب والحث والتحريض ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ﴾ فبدأهم بالنداء الذي يحمل لطف الكلام، بأن نسب نفسه إليهم، بأنه منهم، بما يفيد إظهار الحرص عليهم، ومحبة الخير لهم، لأنه جزء منهم، مما يبين أهمية اللطف في الوعظ. فقال لهم ﴿ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ أطيعوا المرسلين باتباعهم، وقد أثبت لهم في نصحه وخطابه لهم بأنهم مُرسَلُون، إذ سماهم بحقيقتهم، وأمر قومه بالاتباع، الذي يفيد الانقياد للمرسلين بما يأمرونكم به، وما ينهونكم عنه.

ثم علل لهم سبب أمره لهم باتباع المرسلين وذلك بحجتين قويتين: الأولى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا ﴾ فهم لا يطلبون على ما يدعونكم إليه ثمناً البتة، مما يدل على أن ليس لهم مقاصد ذاتية وشخصية، تجعلكم تنكرون عليهم دعوتهم، فليس لهم حظوظ نفس، مما يدل تجردهم من ذلك على أنهم مخلصون صادقون فيما يدعونكم إليه. وهي حجة قوية، تبين أهمية الاستدلال بالقرائن الكاشفة للحق والحقيقة. والحجة الثانية: ﴿ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ فإن مضمون ما يدعونكم إليه هداية، وحق، وبالتالي فإنهم مهتدون، يسيرون وفق هداية، وليست ضلالة، فكل شيء يشهد بأن ما يدعون إليه هو هداية وصلاح، ولا ينهون إلا عن فساد، فليس هناك تضارب بين دعوتهم وبين الهدى والرشاد. فهذه دلائل على صحة وسلامة وصدق ما يدعون إليه، وأنهم مُرسَلُون من الله سبحانه وتعالى. وهو استدلال قائم على دلائل الحق العقلية، والفطرية. فانتفى بذلك ما يمنع من اتباعهم، بل أصبح اتباعهم وفق هذه المعادلة حق واجب.

ثم انتقل بهم إلى المزيد من نفي موانع الاتباع ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ فما الذي يمنعني أن أعبد الذي خلقني وأنشأني، وإليه المآب والرجوع والعودة؟ سؤال يستثير الفطرة، ويستثير العقل. كما أورد النصيحة لهم على وجه النصيحة لنفسه، لتكون أكثر تأثيراً في التأمل والتفكر ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ فأسند السؤال لنفسه، وعليهم التفكر. ليكون أوقع أثراً في النفس، وبالتالي ما الذي يمنعكم من توحيد الله تعالى ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ﴾ فما الذي يمنعني من أن أُفرِد بالعبادة الذي فطرني، وإليه نعود جميعاً. مما يدل على تمكن الشرك منهم، فجعلوا لله تعالى أنداداً. فيطالبهم بتوحيد العبادة لله عزَّ وجل. وجملة ﴿ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ تدل على أنه يؤمن وكذلك قومه بأن الله تعالى هو الخالق. وكفار قريش يؤمنون بأن الذي خلقهم هو الله تعالى، ولكنهم يتقربون بعبادة الأصنام لله تعالى. مما يدل على التشابه، وعلى انتشار الشرك في العباد، نتيجة تقليد اللاحق بالسابق من الآباء. مما يبين خطر الاقتداء من غير علم ودليل صحيح.

ثم رجع بالخطاب البياني من نفسه إليهم، فعدل عن إفراد نفسه حينما قال ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ فانتقل إليهم ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ فانتقل بالخطاب إليهم، لبيان أنه يقصدهم بذلك النصح من البيان والوعظ. فيذكرهم بأن الرجوع قادم إلى الله تعالى الذي أرسل المرسلين الثلاثة إليكم بالحق والهدى. بل من براعة السياق وإعجازه البياني أنه اشتمل على أمرين: الأمر الأول: يخص كل فرد على حده، وهو الاتباع. والأمر الثاني: يخص الجميع وهو الرجوع إلى الله عزَّ وجل بالبعث والحساب والجزاء. فعن ما يخص الأمر الأول:

﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ فخص نفسه، متحدثاً عنها. لأنه يخص كل فرد بعينه، فله أن يطيع، وله أن يمتنع. فأفرد نفسه بالبيان. بينما الرجوع إلى الله تعالى لا يخص أحداً عن أحد، بل إن الرجوع للجميع إلى الله تعالى، فورد الجمع للجميع ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ فجمعهم جميعاً، وهو واحد منهم، ولأنه مؤمن بالرجوع،. بل أفاد أيضاً الترهيب والوعظ لهم. فإنها دقة متناهية، تبين أن هذا القرآن هو كلام الله تعالى الذي بلغت الدقة فيه الكمال بتمامه.

ثم عاد بالخطاب إلى نفسه ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ هل أتخذ من دون ربي آلهة أعبدها من دونه سبحانه وتعالى، وهو الذي فطرني، وإليه رجوعي. ولو أرادني بضر لن تدفع عني تلك المعبودات شيئاً من الضر، ولن تُنقذني مما يصيبني الله تعالى به. سؤال يستثير الفكر نحو التأمل ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ سؤال تعجب، وسؤال استنكار. هل أتخذ من دون ربي آلهة أعبدها؟ هل يصح هذا؟ هل يصح مني هذا؟ فكأنه يقول لهم: تأملوا هذا في شخصي. أيصح من إنسان عاقل، يترك الذي خلقه، ويعبد غيره من الأصنام. فجعل الإنكار على نفسه، وهو يقصدهم بذواتهم. لما في ذلك من إثارة التأمل، وخفض العتاب الذي ربما يستثيرهم عليه. فجعل من نفسه أنه هو المعني برسالة المرسلين، وأن عليهم أن يقيسوا ذلك على أنفسهم. وهو من الأساليب الحكيمة، حتى لا يستثير من يخاطبهم. وبالتالي ينفي أن يتخذ آلهة من دون الله تعالى فيعبدها من دونه عَزَّ وجل. وأن هذا هو الحق، وهو الذي يتفق مع ما جاء به المرسلون من الله تعالى عليهم الصلاة والسلام. مما يبين أهمية الحكمة في التعامل، وكذلك في الخطاب، بل وفي دقة سياق الموعظة والكلام عند مخاطبة الآخرين. وأهمية مراعاة المشاعر، والتلطف بهم نحو الحق. مما يعطي الداعية والموجه والناصح والمربي المنهجية الصحيحة.

ثم انتقل بهم إلى حال إن أراد الله تعالى به شراً وعقاباً، فهل لهذه الأصنام التي تُعبد من دون الله تعالى القدرة على أن ترد شيئاً مما أراده الرحمن؟ والجواب هو: لا تستطيع أن ترد شيئاً. فإذاً كيف أتخذ من دون الله تعالى معبودات عاجزة ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ فإن أرادني الرحمن بعقاب ﴿ لَّا تُغۡنِ عَنِّي ﴾ لن تنفعني، بأن تدفع عني ما أراده الله تعالى من الضر. وجعل الضر ﴿بِضُرّٖ ﴾ عاماً، ليشمل أي نوع، وأي قدر ودرجة من الضر، حتى قليله وصغيره، فإنها عاجزة عن رده مهما كان نوعه وقلته.

فإن شفاعتهم لا تدفع عني شيئاً ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ فإن في ذلك نفي كامل لأن تكون لهم شفاعة ومنزلة عند الله تعالى. وفي نفي الشفاعة عن تلك المعبودات من دون الله عَزَّ وجل هو نفي لأن تكون لها منزلة وحظوة، لأن الشفاعة لا تقبل إلا لمن له منزلة وحظوة. وهذه ليس لها شيء من ذلك. وبالتالي كيف تشفع لي عند الله تعالى، فترد عني ما أرادني الله تعالى به من الضر إن أراده بي. وبالتالي لا نفع لها. فكيف أعبد من انتفى منه النفع حتى الشفاعة، بل من ضعفها وهوانها أنهم ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ ولا حتى لديهم القدرة على إنقاذي منه إن وقع بي. وبهذا البيان كشف لهم ضعف تلك المعبودات، وعجزها عن منع الضر والإنقاذ. فإذاً لماذا اتجه إليها بالعبادة، ولا أُفْرِد الله تعالى بالعبادة؟ سؤال يستثير الذهن. وحقائق تستثير الفكر نحو التأمل، والتبصر، واتخاذ القرار الصائب. فبين لهم بذلك ضلال وقصور عقول من عبد الأصنام من دون الله تعالى، على أنه فيما إذا كان هذا هو حاله، وهذه الحقيقة التي تُمثل حالهم، فإن شركهم باطل من كل وجه، فإن الذي يريدونه من تلك المعبودات منتفي تمام الانتفاء عنها، ولا هو موجود إلا عند الله تعالى، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا شريك له.

ثم يخلص بهم إلى النتيجة في قاعدة وقرار: فالقرار الأول: إيضاحه للنتيجة حال أنه اتبعهم في الشرك، بعد بيانه لعجز تلك المعبودات من دون الله عَزَّ في علاه ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ فإني إذاً، حال أني اتبعت هذه الآلهة بالعباد فالنتيجة ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ فأنا إذاً في غواية ضالة واضحة بينة، فأكون بذلك في خسران واضح وظاهر بائن، وهذا لا يمكن أن يكون من عاقل. وفي هذا لفت عقولهم إلى خطأ وخطر ما هم عليه، بأسلوب التَّمَثُّل بنفسه فيما لو كان ذلك حاله. والذي يمثل حقيقة حالهم التي هم عليها. وفي هذا غاية البيان، وإقامة الحجة العقلية الدامغة للباطل، والمبينة لخطورة ما هم عليه، والجهل الذي هم فيه واقعون.

والأمر الثاني: متعلق بالنتيجة والقرار الذي اتخذه، وهو ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ فقررت بذلك قراراً صريحاً بإيماني القائم على توحيد الله تعالى، ونفي الشرك والشريك له، بل وإبطاله. وهذا القول منه يستوعب أن يكون هو قوله لقومه، ويستوعب أن يكون قوله هذا للمرسلين. وبذلك يعطي فوائد متعددة، وبسياق واحد، وهذا من بلاغة كلام رب العالمين. ويجوز أن يكون قوله مكرر مرتين، مرة لقومه، ومرة للمرسلين. فدلالة حال كونه لقومه ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ فإني وحدت وآمنت بربكم الذي كفرتم به، فاسمعوا كلامي وأطيعونِ بطاعة المرسلين فيما يقولونه لكم من الحق. فهو إعلان، وترغيب لهم، وحث على طاعة المرسلين. وأنه أصبح من أتباع المرسلين، وعلى ملتهم ودينهم. وفي نفس الوقت هو خطاب

وإعلان للمرسلين بما هو عليه ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ فإني أيها المرسلون آمنت بربكم الذي تدعوننا إليه، فاسمعوا قولي بإعلان إيماني، لتشهدوا لي بما أقول من التوحيد والطاعة لله رب العالمين.

قال ابن عباس وكعب، ووهب بن منبه: إني آمنت بربكم الذي كفرتم به، فاسمعوا قولي. وقال آخرون بل خاطب بذلك الرسل، وقال لهم: اسمعوا قولي، لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي. أني قد آمنت بكم واتبعتكم، فَوَثَبُوا عليه فقتلوه[١] قال ابن مسعود رضي الله عنه: لَمَّا خاطب قومه بذلك، وطؤه بأرجلهم، وقال السدي: رموه بالحجارة، وهو يقول: اللهم اهد قومي[٢] وهذا من بلاغة البيان، وجزالته، بأن أعطى تلك المعاني وتلك الدلالات المتضافرة، وغير المتعارضة، فسبحان الله العظيم الذي استوفى بيانه الحال والمراد بأقل الكلام وأوجزه. وهو عين البلاغة البيانية، لأن البلاغة هي الإيجاز في غير إعجاز، فهو إيجاز الكلام في سياق يستوفي المراد، من غير عجز فيه. فاستوفى نص واحد وجهين مختلفين غير متعارضين، بل مؤتلفين لواقع الخطاب، ولنوعين وصنفين من الْمُخاَطَبين.

ثم ينتقل البيان بسرعة إلى بيان حاله بعد أن قتله قومه. فلما قتلوه، ولقي الله عَزَّ وجل، خُوطِب ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴾ فلما قيل له ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ فدخلها ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴾ يا ليت قومي يعلمون بما حصل لي بعد موتي من نعيم ﴿ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ فحصلت له نعمتان عظيمتان: الأولى: المغفرة من الله تعالى له ﴿ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى ﴾ فقد أزال ومحى عني ذنوبي. والثانية: الإكرام ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ وزادني على المغفرة أن جعلني مع من أكرمهم بجزيل الثواب. فتمنى أن يعلم قومه بذلك ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴾ متمنياً لو أن قومه يعلمون بما وجد عند الله تعالى من هذا التكريم العظيم، بهدف أن يتحقق منهم الإيمان، فيأخذوا بما نصحهم به من اتباع المرسلين، ليكون حالهم مثل حاله. فمع قتلهم له إلا أنه تمنى لهم الخير بما وجده عند الله عَزَّ وجل من النعيم الذي أنساه قتلهم له، لأن القتل له كان إسراعاً في نقله إلى أعظم مما كان فيه في الحياة الدنيا، فلم يأبه به، فقد كان القتل خيراً له.

كما أن في سرعة الانتقال إلى ثواب الله تعالى من بعد القتل مباشرة ما يبين سرعة الثواب والإكرام من الله تعالى لمن أطاعه، واتبع هداه. وأن المؤمن ينتقل بعد موته مباشرة للسعادة في دار البرزخ. وفي هذا البيان من الله تعالى تحفيز وترغيب في طاعته جَلَّ جلاله، والإخلاص له وحده لا شريك له، وترك الشرك،

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٢٣/١٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٦٨/٦)

وجميع أنواع الكفر، ليحصل الطائع على خير الآخرة، التي هي دار المقام والقرار. بينما الدنيا دار فراق وعمل وابتلاء. اللهم اجعلنا ممن يؤثر الاخرة على الدنيا، واجعلنا من أهل السعادة في الدارين، بفضلك وكرمك يا رب العالمين.

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يخبر الله تعالى بما نزل على أصحاب القرية من العذاب، أولئك الذين هددوا وتوعدوا الثلاثة المرسلين برجمهم وتعذيبهم، وقتلهم الرجل الصالح الذي نصحهم باتباع المرسلين عليهم الصلاة والسلام، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ فمن بعد موت الرجل الصالح لم يكن الأمر في حاجة أن ننزل عليهم من السماء جنوداً من الملائكة حتى نهلكهم، فشأنهم أيسر من ذلك ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي: من بعد موت الرجل الصالح الناصح لهم باتباع المرسلين ﴿ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ فما احتاج شأنهم أن ننزل عليهم من السماء جنوداً من الملائكة، فشأن إهلاكهم أيسر وأسهل مما يظنون ويتوقعون، وذلك تحقيراً لهم حتى في طريقة عذابهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ وما صح وما استقام في قهرنا لهم، وسلطاننا وحكمنا وحكمتنا أن ننزل عليهم جنوداً من ملائكة السماء. بل لم يحدد البيان من الله تعالى نوع الجند. ليفيد التقليل والتحقير من شأنهم حتى في إهلاكهم. كما تفيد ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ نفي تنزيل الجند، تصغيراً لأمرهم. وحقارتهم حتى في العذاب.

فإن عذابهم بالهلاك كان بمجرد صيحة عليهم فأهلكتهم جميعاً، فلم يتطلب الأمر جنوداً من السماء ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ فلم تكن إلا صيحة فأهلكتهم. فقد كان هلاكهم بمجرد صيحة من جبريل عليه السلام، فأهلكناهم هلاكاً جعلهم خامدين، أي: ساكنين لا حركة لأحد منهم. قال

المفسرون رحمهم الله تعالى: أخذ جبريل عليه السلام بعضادتي باب المدينة، ثم صاح بهم صيحة واحدة، فإذا هم ميتون، لا يُسمع لهم حس. كالنار إذا طُفِئت، وهو قوله تعالى ﴿ فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ أي: ساكنون، كهيئة الرماد الخامد[1] فعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن الله تعالى غضب لهذا المؤمن، لاستضعافهم إياه، غضبة لم تبق من القوم شيئاً، فعجَّل لهم النقمة بما استحلوا منه. وما كثرناهم بالجموع، فالأمر أيسر علينا من ذلك. وهو القول الذي رجحه ابن جرير رحمه الله تعالى[2] مما يبين عظيم قدرة الله تعالى، وأنه لا يعجزه شيء، لأنه تبارك وتعالى على كل شيء قدير عَزَّ في علاه.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى بأدق البيان والوصف عن عظيم خسارة من يكفر ولا يؤمن، وما يفوتهم من الحق والخير، فيقول تبارك وتعالى ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ما أعظم ما يفوت العباد من الخير، وما أعظم ما يخسرونه وما يحصل لهم من الحسرة والندامة على ما فاتهم من الخير بكفرهم ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾ استثارة النفس في قوة ما يلحقها من الحسرة، التي هي شدة الندم على ما لا يستطيعون إرجاعه واستيفاءه إذا ذهب عنهم. بسبب ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ما جاء رسول من رسلنا إلى قوم من الناس ﴿ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي: جعلوا شأن الرسول وما جاءهم به من الهدى والخير محل استهزاء وسخرية. فيستخفون به وبدعوته، ويصفونه بالكذاب، والجنون، وغيرها من الأوصاف التي يفترونها، والتي هي محل استهزاء، كونها منافية للحقيقة. وفي هذا تحذير لكل معتبر، بما كان من السابقين، وبما فاتهم من الخير، وبما سينالهم من العذب بدلاً من نعيم الجنة المقيم. لتتأكد فيهم الحسرة التي لا يستطيعون معالجتها، فإنها حسرة ألم وندم شديد، مع العذاب الجسدي الشديد. فقد تكالب عليهم العذاب النفسي مع العذاب الحسي الجسدي.

ثم يخبر سبحانه عن تجاهلهم للحقائق التي كان الواجب أن يتأملوها، وينتفعوا بها. فقال عَزَّ وجل ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ألم يعتبروا بكثرة من أهلكنا قبلهم من الأمم التي يعرفونها، فلم يعودوا إلى الدنيا بعد هلاكهم ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ فلم تكن لهم إلى هذه الدنيا رجعة أبداً، ليعالجوا حسرتهم بما فاتهم من الخير والنعيم المقيم في جنات عدن.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٦٨/٦)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٢٥/١٩)

فتلك موعظة من الله تعالى إلى من دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فأبوا، وهي موعظة مستمرة إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. وقد بدأت الموعظة بسؤال استنكار، لحالهم مما مَرَّ وسبق على الأقوام السابقة، وهو تقرير بحال من سبق، الذي يلحق بكل من عاند وكفر. وهو كذلك استثارة ولفت نظر للتأمل وشد الانتباه من خلال السؤال الاستنكاري والتعجبي من حال هؤلاء المكذبين الذين لم يعتبروا بمن قبلهم ممن شابهوهم في الصدود، وما حل بهم، كعاد وثمود وغيرهم. ﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ وهو سؤال تقريري لأخبار أقوام سابقين، تشابهوا معهم في العناد والصدود، فيقرر فيه تعالى أنه لم ينتفعوا بأحداث من سبق من الأمم الهالكة. وعندما يقول الحق تبارك وتعالى لعبده أو لعباده ﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ فإنه إخبار منه سبحانه وتعالى بحقائق من الصدق، وكأن الْمُخَاطب به قد رآه رأي العين. مما يدل على أن خبر أولئك الأقوام ذاع وانتشر، واستمر ذيوعه بما يتناقله الناس عن بعضهم البعض، وبآثار الهلاك الذي بقي بعدهم.

وكلمة ﴿ كَمْ ﴾ تفيد الكثرة، فهو استفهام عن العدد الكثير من الأقوام المكذبة، الذين أهلكهم الله تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ مما يفيد التضخيم والتعظيم من تلك الأمم التي تم إهلاكها بسبب كفرها، فإن الذين أهلكهم الله تعالى من المكذبين ليس بالعدد القليل، بل أعداداً عظيمة وكثيرة من الأمم المكذبة بالمرسلين ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ بل وأورد سبحانه وتعالى تلك الأمم بصيغة الجمع ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ ﴾ فالقرون جمع، يفيد ويعني الكثرة، لأن القرن يفيد دلالة الأمة من الناس، وهم أهل كل عصر، وفي الحديث النبوي ما يدل على ذلك (خير الناس قرني)[١] وإن في هذا عبرة واعتبار لهم، وموعظة، فكان الأولى بهم وبكل أحد أن يعتبر بما سيق له من أخبار الأمم السابقة، حتى لا يقع في الحسرة والندامة التي لا يمكن تداركها وتعويضها.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بحال جميع تلك القرون الماضية والآتية من بعدهم ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ فإن الكل والجميع مما مضى وسلف، وما هو قادم من الأمم مُحضَرُون جميعاً عند ربهم يوم القيامة، للحساب والجزاء، بما يفيد أن عودتكم ومآلكم هو إلينا، فاحذروا من الكفر، ومعصية الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن الخير لكم في طاعة رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم أيها الناس. ومن دقائق البيان أن دلالة كلمة ﴿ مُحْضَرُونَ ﴾ تفيد قوة الإحضار الذي يمتنع منه التأخر، والانفلات، والغياب. ولم يُذكر فاعله، الذي

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٢/٢٥١) برقم (٢٦٥٢)

يحضرهم، ليفيد التعظيم والهيبة لعملية الإحضار، فإن الله تعالى يحضرهم بالطريقة والكيفية التي تجمعهم جميعاً، فلا يفوت منهم أحد. فسبحان الله العظيم، الذي تجلت عظمته في كل شيء، ومنها خطابه وبيانه عَزَّ وجل.

ثم ينتقل السياق البياني الكريم إلى المزيد مما يصحح أفكار وعقول المكذبين مما هم عليه من الكفر والإنكار للبعث، وذلك بعرض الآيات والبراهين والحجج الدالة على حقيقة البعث بعد الموت، فيقو عَزَّ وجل ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ وإن من الآيات الدالة على البعث بعد الموت هو إحياء الأرض بعد موتها ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ فالأرض التي ترونها جافة، وخالية من الحياة، فلا نبات ولا ماء بها ﴿ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ بالماء الذي نزل عليها، فأصبحت مخضرة بما أنبتنا فيها من الزروع، فعادت لها الحياة من جديد ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ﴾ واخرجنا من الأرض الميتة حباً، وهو دليل حسي بالنظر على عودة الحياة، ودليله الآخر هو ﴿ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ وهو ما يأكله الإنسان، وهذا دليل حسي بالتذوق والاستطعام والأكل والإشباع، سواء مما يأكلون، أو من حياة الأرض بعد موتها. مما يستوجب منكم الإيمان بالبعث بعد الموت، حيث يكون الحساب والجزاء. وبما يفيد: وما الذي يمنعكم من الإيمان بالبعث بعد الموت؟ وأنتم ترون عظيم قدرة ربكم في الإحياء بعد الموت للأرض التي تعيشون عليها؟ وتأكلون مما أحياها به من إنبات الزروع. فإنه بيان عظيم في الاستدلال والإظهار للحقائق، من خلال القياس العظيم المبين. مما يبين أن هذا الدين هو دين علم وتعليم وحقائق وبراهين. فيغرس فيمن اتبعه العلم والفهم واليقين، وتوسعة الذهن والفكر بالحقائق الدافعة للإيمان بالغيب وفق الدلالات والأدلة المشاهدة بجميع الحواس. فالحمد لله رب العالمين على ما أنعم به من هذا العلم العظيم الجليل. مما يعطي الواعظ والموجه والمعلم أن يجعل من مادته التي يوجه بها غيره الاستدلال بالأدلة والحقائق الكونية والحقائق التي يزخر بها القرآن الكريم.

ثم يزداد العمق في لفت الانتباه إلى عظيم ما جعل الله تعالى في الأرض من الحياة والخير الكثير، الذي ينعم به العباد ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾ وجعلنا في الأرض التي أحييناها بعد موتها البساتين الغنَّاء من أشجار النخيل وأشجار الأعناب، وفتحنا وفجرنا فيها من عيون الماء التي تتدفق من الأرض، فترتوون، وتُروون أنعامكم، وزروعكم، وترتوي الأرض بهذا الماء الذي أنزلناه من السحاب الذي في السماء.

ومن دقائق البيان هو اختيار النخيل والأعناب من بين بقية الزروع والأشجار، وذلك لما فيهما من التغاير العظيم، فالنخل ممتد في السماء بالعلو والارتفاع، وأشجار العنب ممتدة على ما يكون من العريش الذي يُنشأ لها، حتى تقوم عن الأرض. فهناك تغاير عظيم، يدل على عظمة الخالق وتدبيره الجميل سبحانه وتعالى، وكذلك الفرق بين سعف النخيل وأغصانه، وورق العنب وغصونه، وقوة سعف النخيل وجريده، وجذوعه،

ورقة أشجار العنب وعناقيده، فهو محل للتأمل في التفاوت العظيم، حتى فيما يخرج منهما من التمور والأعناب، سواء في رقته، وهيئته، أو في ألوانه وأشكاله.

كما أظهر سبحانه وتعالى نعمة تدفق العيون بلفظ التفجير ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ فلما أن الأرض قاسية، فإنه على قسوتها فَجَّر العيون فيها بالماء السائل الرقيق، الذي تشربون منه، وتُسقُون به الزرع والأنعام. فهي آيات في آية كريمة، تدل على عظمة الخالق، وأنه على كل شيء قدير. أفمن خلق هذا الخلق بهذا التكوين العظيم، وتفجير الأرض، أيكون هناك عجز وعدم القدرة على إعادة هذا الإنسان على ما كان عليه من الخلقة والهيئة؟ أيعقل أن تظنوا بالله تعالى العجز عن ذلك؟ فالاستحالة إذاً منفية ومنتفية. فإنه الخلاق العليم، القادر على كل شيء، والذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. فإنه التعليم الرباني القائم على الحقائق والبراهين. والذي يفتح العقل والذهن، ويرتقي به إلى أعلى ما يمكن أن يكون عليه الإنسان في الفهم والتحليل والعلم والعمل.

ثم يذكر تبارك وتعالى عظيم امتنانه على العباد بما أعطاهم ومنحهم من خيرات الأرض، التي يلزمهم شكرها، بطاعة ربهم عَزَّ وجل، والامتثال لرسوله صلى الله عليه وسلم. فقال عَزَّ وجل ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ فما جعلناه من الثمار والجنات والنخيل والأعناب هو من أجل أن يأكلوا من ثمره، فالهدف والغاية هو ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ فإنها عناية عظيمة من الله تعالى بالإنسان، بما يفيد المبالغة في إكرام هذا الإنسان إلى هذه الدرجة من الخلق والتسخير. بما يفيد أن من واجب هذا الإنسان الذي أكرمه ربه تبارك وتعالى أن يوحد ربه جَلَّ جلاله، وأن يطيعه، وأن يمتثل لما أبلغهم به رسوله صلى الله عليه وسلم. فإنه تكريم عظيم من رب رحيم. فمها عمل الإنسان من الطاعة لربه جَلَّ ثناؤه فإنه لم يحقق بها ولو شيئاً يسيراً من واجب الشكر وعظيم الامتنان.

ومن بديع البيان أن جملة ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ تأتي بمعنيين: الأول: نفي أن تكون أيديهم هي التي عملت ما رزقهم الله تعالى به من الثمار ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ليأكلوا من ثمر ما رزقهم الله تعالى، ولم تعمله أيديهم. والمعنى الثاني: يأتي بمعنى الإضافة. أي: إضافة إلى تلك النعمة من خلق وتسخير الثمار للأكل هو أيضاً تسخيرهم وتعليمهم وتفهيمهم صناعة ما يحفظون به الطعام، كتجفيف التمور والعنب والتين، وما يصنعون منها بالعصر لها من الأشربة، وما يخلطونه منها بغيره، ليكون طعماً آخر. وذكر أهل التفسير

هاتين الدلالتين، ومنهم ابن كثير رحمهم الله تعالى[١] مما يبين الإعجاز البياني في القرآن، إذ أن سياقها أعطى معنيين متعاضدين ومُتآلفين، غير متضادين، ومن غير حاجة للتكرار بسياقين لتحصيل المعنيين.

ثم يلفت سبحانه وتعالى انتباه الْمُخَاطَبين إلى ما يجب عليهم تجاه هذا الإنعام العظيم ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وهو سؤال استعتاب لهؤلاء المكذبين، واستنكار لما هو منهم تجاه ربهم الذي أنعم عليهم بهذا الإنعام، وبهذه النِّعَم التي لا تُعد ولا تُحصى، فيقابلونها بالكفر والاستكبار والطغيان مع عجزهم وفقرهم لربهم تبارك وتعالى. فهو سؤال يستثير العواطف، ويستنهض الفكر والعقل من سباته وجهله، ليفكر الإنسان في المعادلة الصحيحة التي انحرف وتاه عنها الإنسان بالكفر والجحود. وفي هذا تعليم للعباد بالحقائق والأدلة والبراهين التي لا يزيغ عنها إلا معاند مستكبر.

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾
وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ
تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ
يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

يعظم الله تعالى ذاته الكريمة العظيمة، وينزهها عن كل عيب ونقص، وذلك ببيان عظيم ما خلق وأنعم، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ افتتح الله تبارك وتعالى الآية الكريمة بتمجيد ذاته العظيمة الكريمة ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ وهي تعني التزيه عن كل نقص وعيب. تقول: سَبَّحتُ الله تعالى تسبيحاً، فنزهته وعظمته تعظيماً وتنزيهاً عن كل ما لا يليق بربنا جَلَّ في علاه. وقد اتصف ربنا جَلَّ جلاله بكمال الصفات، وجليل القدر، وعظيم القدرة، وانفرد بها دون سواه، فإنه القادر على كل شيء. وفي ذلك تنبيه المخاطب إلى عظمة ربهم تبارك وتعالى، وعظمة ما سيذكره عَزَّ وجل في شأن الخلق والإيجاد، وما أنعم به عليهم، وما يجب له تبارك وتعالى على عباده من التسبيح والتنزيه.

ثم ذكر عَزَّ وجل عظيم خلقه وتدبيره ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ تنزه ربكم الذي خلق الأصناف جميعها من جميع أنواع وأصناف

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٧٨/٣)

نباتات الأرض ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ ﴾ والأزواج هي: الأصناف، قاله ابن قتيبة رحمه الله تعالى. وقال الجوهري رحمه الله تعالى: الأزواج القرناء[١] فتنزه الله تعالى الذي خلق جميع الأنواع والأصناف، ذكوراً وإناثاً. وجملة ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ ﴾ تدل على التعدد، والكثرة، والماثلة المتكررة بينهم، في أصنافها المتعددة. فهي أصناف مختلفة في الطعم، والحجم، واللون، وكل صنف منها: زوج ﴿ ٱلْأَزْوَٰجَ ﴾ ومجموعها أزواج، ﴿ مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ أي: خلق جميع الأصناف التي تنبت في الأرض، من الحبوب والثمار وغيرها ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي: وكذلك خلق الأزواج من أنفسهم، الذكر والأنثى، مع التنوع فيما بينهم، في الألوان والأحجام والأطوال، والتفكير والقدرات.

ثم استوعب البيان جميع ما خلق ربنا تبارك وتعالى ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وخلق مخلوقات أخرى لا تعلمونها في البر والبحر، والسماء والأرض، ومن ذلك أنك تجد في بلد ما لا تجده في بلد آخر، سواء من النباتات أو الحيوانات، أو الأنهار، والعيون وغيرها مما خلق سبحانه وتعالى. مما يبين به ربنا تبارك وتعالى أن الذي يستحق التنزيه عن كل نقص وعيب وشريك هو الذي خلق هذا الخلق العظيم العجيب في تعدده، وفي أصنافه ومكوناته، وفي ألوانه وأحجامه وأشكاله، واستخداماته، وتنوع فوائده للعباد في جميع ما يحتاجونه، وخلقه في أجمل ما يكون الخلق، وبحسب ما تكون الحاجة إليه. فالذي خلق هذه المخاليق في تعددها وتنوعها هو الذي انفرد بالخلق والملك والتدبير، فتنزه عن كل ما لا يليق به عَزَّ وجل. وبالتالي يجب على العباد إفراده بالعبادة، ونفي الشريك والولد، ولزوم الطاعة باتباع رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم بعد أن لفت الانتباه لما خلق سبحانه وتعالى مما تنبت الأرض ومن أنفسهم، ينتقل بالْمُخَاطَبين في تدرج بديع إلى تكوين الليل والنهار، والظلمة والنور، فقال تعالى ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ وإن من دلائل عظيم قدرة ربكم على كل شيء آية الليل والنهار ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ أي: علامة لهم تدل على وحدانية ربكم وعظيم قدرته جَلَّ جلاله، ووجوب توحيده وعبادته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ فإن الليل المظلم بسواده ﴿ نَسْلَخُ ﴾ ننزع ونكشط ونخرج ﴿ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ فيُذهِب سبحانه وتعالى الضوء الذي يمثله النهار الساطع

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٤٢/٣)

الواضح ويأتيكم بالليل. فجعل ذلك التغاير بأسلوب السلخ. الذي هو نزع الشيء من الشيء، ولكنه بتدرج متتالي.

فهذا النهار المضيء سلخنا لكم منه الليل المظلم، المضاد للضوء وجلاء النهار ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ أي: داخلون في الظلام فجأة، فحرف ﴿ فَإِذَا ﴾ أفادت دلالته المفاجأة بحالة التغيير المضادة. وأيضاً هو بمعنى إخراج النهار عنه. قال أبو عبيدة رحمه الله تعالى: نُخرج منه النهار، ونميزه منه، فتجيء الظلمة. وقال الماوردي رحمه الله تعالى: وذلك أن ضوء النهار يتداخل في الهواء، فيضيء، فإذا خرج منه أظلم[١] مما يبين لكم عظمة الخالق سبحانه وتعالى بتغاير هذه المتضادات العجيبة من الليل والنهار، وكذلك طريقة انسلاخها وتغايرها العجيب. مما يدلكم على أن الله تعالى هو الخالق المدبر الذي له الملك والوحدانية، ووجوب الطاعة الكاملة له تبارك وتعالى. وهذا يبين أهمية التأمل في جريان الكون، ومخلوقاته، وأحداثه، وترتيبها وتباينها، وما ينجم من أحداثها وتغايرها، فإنها تُعلِّم الإنسان أن خالق الكون هو الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يستحق العبادة غيره عَزَّ وجل.

ثم يلفت اللهُ تبارك وتعالى عقول العباد إلى الشمس وجريانها، وتقدير ذلك التقدير الدقيق، الذي يدل على كمال قدرته عَزَّ وجل، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ ومن آياته سبحانه وتعالى الدالة على كمال ملكه، ودقة تقديره، وعظيم قدرته وسلطانه أن الشمس تجري ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى ﴾ فهي تجري لمجرى لها، إلى ما قدره لها ربنا تبارك وتعالى من مقادير مواضعها التي تنزلها، فتسير سيراً حثيثاً، في دأب متتالي ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ وهو ما قدره الله تعالى لها، مكاناً وزماناً، فلا تقصر عنه، ولا تتجاوزه، فهي تجري إلى أقصى منازلها في الغروب، ثم ترجع وتعود من غير تتجاوز، أو تأخير للشروق.

فليس لها أن تتصرف خلاف ما قدره الله سبحانه وتعالى لها ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ فذلك التقدير والترتيب هو تقدير ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ العزيز: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة ﴿ ٱلْعَلِيمِ ﴾ الذي أحاط علمه سبحانه وتعالى كل شيء. فشمل كل شيء، فلا يغيب عن علمه شيء من الكون. مما يستوجب على العباد إفراد ربهم بالعبادة، وفق ما جاء به

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٧٠)

رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأن يؤمنوا بالبعث والحساب والجزاء. فمن كانت هذه عظمته في آيات خلقه فإنه على رجع العباد بالبعث بعد موتهم لقدير.

ثم يلفت اللهُ تبارك وتعالى عقول العباد إلى القمر، وجريانه في منازل محددة له، فلا يتجاوزها، ولا يتأخر عنها، فَقَدَّر جَلَّ في علاه ذلك التقدير الدقيق، الذي يدل على كمال قدرته سبحانه وتعالى، وعظيم إبداعه، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ فالقمر آية أخرى من آيات ربكم العظمى ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ فهو يسير وفق المنازل التي قدرها وحددها له ربه تبارك وتعالى ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ ﴾ والتقدير هو التحديد الضابط لحركة القمر وفق منازله ﴿قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ أي: فحدد وهيأ ويسر للقمر منازل ينزلها كل ليلة. قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: منازل القمر ثمانية وعشرون منزلا، من أول الشهر إلى ثمان وعشرين ليلة، ثم يستتر[1] فالمنازل هي الزمن والموقع والمكان الذي يكون فيه القمر أثناء مساره. ويدل معنى المنازل على المنزل والمنزلة التي ينزلها القمر. ونقل الشوكاني وغيره تلك المنازل، بأنها الثمانية والعشرون التي ينزل القمر في كل ليلة في واحد منها. وإذا صار القمر في آخرها عاد إلى أولها، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة، ثم يستتر ليلتين، ثم يطلع هلالاً، فيعود في قطع تلك المنازل من الفلك[2] ففي كل ليلة من الثمان والعشرين ليلة ينزل في منزلة من السماء، لا يتقدم ولا يتأخر.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن هيئة وصورة القمر بعد أن يتنزل في منازله وفق تدرج عجيب عظيم، ليصل إلى هذه الحالة العجيبة ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ فيتدرج في منازله حتى يعود كعذق النخلة إذا قَدُمَ فانحنى، بعد أن كان منيراً ساطعاً بنوره على الأرض. والعرجون هو العذق اليابس. أي: أن القمر سار في منازله حتى إذا جاء آخر المنازل صَغُرَ حجمه، وأصبح كالقوس الشبيه بالعرجون، الذي هو عرجون النخلة المنحني بما أثقله مما يحمله من التمر، فَنَشَّ وانحنى واستقوس. وهو العذق اليابس المتقوس بانحنائه في النخلة. وسماه سبحانه وتعالى بالقديم ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ لإفادة التقادم الزمني وأثره على حالته، لأنه مَضَى عليه زمن طويل، فانحنى بفعل حرارة الشمس والتقادم، فلم يعد يقوى على نفسه من الضعف، ليتمثل به القمر الذي عاد بعد اكتماله قمراً منيراً إلى ضعفه كالعرجون. قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: والقديم: ها هنا: الذي قد أتى عليه حول، شُبِّه القمرُ آخر ليلة يطلع به[3] مما يبين عظمة تقدير الله تعالى، بما يفيد أن الذي أضعفه بعد قوته،

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٤)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٦٩/٤)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٧١/٦)

وأعاده إلى قوته بعد ضعفه هو الذي يُضعفكم بعد قوتكم، وهو الذي يميتكم، وهو الذي يحيكم ويعيدكم كما أعاد القمر بعد ضعفه وغيابه عنكم. فأين مكان استبعادكم للبعث بعد الموت، فإنما هو فكر واعتقاد لا حقيقة له، بل إن الشواهد والحقائق تثبت ذلك. مما يلزمكم أيها العباد أن تتأملوا في خلقه سبحانه وتعالى، فإنها تكشف لكم عظيم سلطانه وقدرته تبارك وتعالى، ليهتدي بها الضال، ويزداد بها المؤمن إيماناً.

ثم يتدرج البيان إلى لفت انتباه وعقول العباد إلى تتابع السير بين الشمس والقمر، وجريانهما في السماء، وفق منازل لا يتجاوزانها ولا يتأخران عنها، ولا يسبق أحدهما الآخر، فإن الله عَزَّ وجل قدر ذلك التقدير الدقيق، الذي يدل على كمال قدرته جَلَّ في علاه، وعظيم ما صنع ودبر، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ فلا يجوز للشمس أن تدرك القمر فتلحقه في أحد منازله، فتذهب بضوئه، فيحصل الاختلاط في الأوقات ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾ مما يفيد التقدير والتهيئة والمنع من المخالفة، بل قد استوجب الأمر والسير وفق ما قدرناه ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ ولا يجوز لليل أن يتعدى إلى النهار، فيبدد إضاءته ونوره بظلمته، أي بظلمة الليل. فجعلها سبحانه وتعالى يسيران وفق ترتيبه وضبطه ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ وكل من الشمس والقمر والليل والنهار يسيرون ويدورون على الدوام والاستمرار وفق ما رتبه ونظمه لهم سبحانه وتعالى. قال الشوكاني رحمه الله تعالى في معنى الفلك: هو الجسم المستدير، أو السطح المستدير، أو الدائرة، والسبح هو السير بانبساط وسهولة. والجمع في قوله تعالى ﴿يَسْبَحُونَ ﴾ باعتبار اختلاف مطالعها، فكأنهما متعددان بتعددها، أو المراد: الشمس والقمر والكواكب[١] فصيغة الجمع تستوفي جميع مطالع الشمس والقمر والكواكب، وما يلحق بهما من الليل والنهار. وهذا من عظمة السياق في القرآن الكريم، إذ أن كل كلمة تستوفي مراد الله تعالى بكماله ووفائه.

ففي تعاقب الليل والنهار وانتظام الشمس والقمر في منازلهم، وفي اختلاف صورة وشكل الليل عن النهار آيات عظيمة لمن أراد أن يتفكر ويتأمل، ليزداد إيماناً، وليهتدي بعظمة الآيات الباهرات في الكون العظيم الفسيح على عظمة الله تعالى. ولينقاد في متابعة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. وفي هذا السياق لفت الانتباه إلى جميع أوجه الاختلاف بين الليل والنهار والشمس والقمر، سواء من حيث الظلمة والنور، أو من حيث الطول والقصر، أو من حيث ولوج الليل في النهار، وولوج النهار في الليل، وما يمكن أن يكون في النهار من سعي العباد، وطلب الرزق والتكسب من فضل الله عَزَّ وجل، وما يمكن أن يكون في الليل من الراحة

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٧٠/٤)

والنوم. وما يظهر في الليل من النجوم، واختفاؤها في النهار، وظهور الظلال في النهار، بأطوالها ومساحاتها، وتقلصها في الظهيرة حتى يصبح ظل كل شيء تحته، ثم تَمَدُّدُهَا في الاتجاه المعاكس لما كان من تمددها من أول النهار حتى تقلصها في الظهيرة، ثم يغطيها الليل بسواده وهجعته، فإنها آيات دالة على عظمة الخالق العظيم سبحانه وتعالى.

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) ﴾

ويستمر الاستدلال على حصر استحقاق العبودية لله تعالى بالدلائل العظيمة من تدبيره وعظمة ما خلق عَزَّ وجل، فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ ومن آياته التي تثبت حصر استحقاق العبودية له تبارك وتعالى، وأنه هو المنعم لا غيره، وأنه المتفضل عليهم بما يرونه من الدلائل ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ أنا نجينا نوحاً عليه السلام ومن معه من المؤمنين بحملهم في سفينة نوح عليه السلام، المملؤة بأجناس المخلوقات، لتستمر الحياة بكاملها في تتالي وتتابع ودون انقطاع إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. فهذه آية من آياته العظيمة ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ ﴾ أي: وعلامة ودليل وحجة لهم، ولجميع العباد الْمُخَاطَبين، ومنهم كفار مكة ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أي: حملنا آباءهم الأقدمين، فاسم الذرية يقع على الآباء والاجداد كما يقع على الأبناء والأحفاد والذرية. قال المفسرون رحمهم الله تعالى: أراد في سفينة نوح. ونسب الذرية إلى المخاطبين، لأنهم من جنسهم، كأنه قال ذرية الناس[1] وقال الواحدي رحمه الله تعالى: والذرية تقع على الآباء كما تقع على الأولاد. وقال أبو عثمان رحمه الله تعالى: وسُمّي الآباء ذرية، لأن منهم ذرء الأبناء[2]

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٧٢)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤/٣٧١)

مما يدل على أن اطلاق الذرية يشمل الأصول، كما يشمل الفروع. كما أن في هذا تذكير بالنعمة، وإعادتهم إلى الحقائق التي يعرفونها. مما يبين أهمية التعليم والوعظ بالتذكير بحقائق النعم، وبالأحداث العظيمة.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ودلالة لهم أيضاً على قدرته تبارك وتعالى بتسخيره البحر ليحمل السفن، فمن ذلك، بل أوله سفينة نوح عليه الصلاة والسلام ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: آباءهم ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي: في السفينة المملوءة من الامتعة والحيوانات التي أمره الله تعالى أن يحمل فيها من كل زجين اثنين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: المشحون: الموقر[١] وتعني دلالة ﴿الْمَشْحُونِ﴾ المملوء، والممتلئ، والمحمول. والموقر، أي: سفينة نوح عليه السلام. قال ابن زيد رحمه الله تعالى: والمشحون هو الذي قد شُحِن، الذي جُعل فيه ليركبه أهله، جعلوا فيه ما يريدون، فربما امتلأ، وربما لم يمتلئ[٢] قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: آية تجمع بين العبرة وبين المنة، وهي آية تسخير الفلك أن تسير على الماء، لتطفو عليه دون أن يغرقها. وذكر كذلك من لطائف البيان: نَزَّل البشر كله منزلة محمولين في الفلك المشحون في زمن نوح، وذِكْر الذريات يقتضي أن أصولهم محمولون بطريق الكناية، إيجازاً في الكلام، وأن أنفسهم محمولون كذلك. كأنه قيل: إنا حملنا أصولهم وحملناهم، وحملنا ذريتهم[٣] مما يدل على قوة وسعة استيعاب دلالة البيان، فيظهر إعجاز البيان في كتاب الله العزيز الحكيم.

فتلك دلائل وبراهين على أن الله تعالى هو الخالق والمالك، والمدبر، الذي انحصرت العبودية له تبارك وتعالى، وبطلان كل عبودية صُرِفَت لغيره من الخلق. فكيف للعباد أن يصرفوا للمخلوق ما هو حق خالص للخالق. مما يفيد ويبين أن منهج الإسلام يعالج أفكار وعقول جنس الإنسان بالحقائق الواضحة، والأدلة الباهرة. وبالتالي فلا يعارضها إلا معاند للحق، وفي نفسه كبرياء وحسد لمن حَمَلَ له الحق من المرسلين. ومن دقائق البيان الكريم أن دلالة ﴿حَمَلْنَا﴾ جمعت بين الإنقاذ وتحقيق الأمن والأمان، وبين الإنجاء، وبين النقل من مكان إلى مكان، ففيها استيفاء للعديد من مفردات الإنعام.

ثم يُضيف تبارك وتعالى بيان المزيد من إنعامه بما خلق من المراكب التي تنقلهم وتحملهم من مكان لآخر، وتحمل امتعتهم، فقال عَزَّ وجل ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ وكذلك إلى جانب السفن، خلقنا لكم أيها المخاطَبُون من الأنعام ما تركبون، كالإبل. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: الإبل، خلقها الله

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٨٠/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٤٢/١٩-٤٤٣)

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٢٥/٩-٣٢٦)

تعالى كما رأيت، فهي سفن البر، يحملون عليها ويركبونها[١] وفي هذا بيان لكمال إنعام الله تعالى على جنس الإنسان إذ خلق له على الأرض من الأنعام ما تحملهم وتحمل متاعهم، كما خلق لهم السفن في البحر لتحملهم وتنقلهم وأمتعتهم وتجارتهم من مكان إلى مكان، وذلك بتعليم ربنا لنوح عليه الصلاة والسلام صناعة السفينة، التي انتقل تعليمها من جيل إلى جيل، وفي تطور من طور إلى طور بفضله سبحانه وتعالى على الإنسان. فهو الذي خلق، وهو الذي عَلَّم، وهيأ للإنسان ما يحتاج إليه، ففي هذه التهيئة والمواءمة بين حاجة الإنسان وبين ما خلقه لهم، وعلمهم إياه آيات إعجاز، ودلائل على ربوبيته وألوهيته سبحانه وتعالى، بأنه رب كل شيء ومالكه، وأنه الرب الذي لا يستحق العبادة إلا هو سبحانه وتعالى، وبطلان كل معبود سواه. وأنه على كل شيء قدير، فلا يعجزه شيء، ومن ذلك البعث والحساب والجزاء.

ثم يخبر الله تعالى عن مزيد لطفه على الإنسان بحفظه في ركوبه السفن، والمراكب في البحر والبر، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ فلو أراد الله سبحانه وتعالى إغراق من هم في السفن لأغرقهم ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ ولكن من امتنان الله سبحانه وتعالى أنه لم يغرقهم، مع قدرته على ذلك، ولو أغرقهم ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أي: فلا مغيث ولا مجير لهم مما حصل لهم من الغرق، لينقذهم من ذلك. فالصارخ هو المستغيث والمستنجد ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ ولا لهم مُخَلِّص يخلصهم بالإنقاذ من الغرق. مما يفيد أن تحقيق السلامة هو فضل من الله تعالى على العباد، ولو شاء لأغرقهم. مما يفيد أن الاعتماد على الله تعالى هو عين الحقيقة، وهو أصل التوكل، بأن يسأل العبد ربه السلامة في كل حال يكون عليه، ومنها تقلبه وانتقاله في البر والبحر.

ثم استثنى تبارك وتعالى من عموم الإهلاك الإنجاء برحمته، بأنه بسبب رحمته بكم، نُسَيِّرُكم وننجيكم ونمتعكم إلى تمام آجالكم المحددة ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ إلا أن نرحمهم ونمتعهم إلى آجالهم. فإنه مما يبين لكم امتناننا وتفضلنا عليكم إيها الناس هو اسدال رحمتنا عليكم، بسلامتكم في إبحاركم، وعدم إغراقكم فيه، وهلاككم بأمواجه وعمقه، وذلك بسكون البحر وهدوئه، وهي من رحمته وجميل تدبيره جَلَّ في علاه ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ فبرحمتنا لكم حفظناكم ونحفظكم من مخاطر البحر وأهواله، ولولا حفظنا لأهلكناكم بالغرق، ولذلك فقد تحققت لكم منا الحياة ﴿ وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ فبرحمتنا التي تنقذكم من أهوال البحر أمددنا في أعماركم ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ إلى حين انقضاء آجالكم المقررة لكل واحد منكم. مما يغرس في المؤمن الطمأنينة، وذلك بالتوكل على

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/٤٤٦)

الله تعالى، والعلم اليقيني بأنه لن يموت أحدٌ إلا إذا حان أجله، ولن يموت أحد قبل ذلك. فهذا يعزز عند المؤمن كثرة سؤال الله تعالى العافية، والأمن والأمان. كما يُعلِّم الجاحد أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتولى أمره، وأمر كل شيء، فعليه أن يطيع ربه وخالقه الذي أنعم عليه بهذا الإنعام، ومن ذلك حمله على السفن في البحر، وحفظه من الغرق حتى يحين أجله المحتوم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأنه بالرغم من هذه الحجج والبراهين إلا أن هناك من يصد ويعرض عن الآيات والحجج، وعن الدعوة إلى الخير والتزام التقوى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فإذا قيل للمشركين احذروا ما سيكون من أحوال الآخرة والحساب والجزاء، من أجل تحصيل رحمة ربكم، فإنهم يعرضون. وقد ورد القول لهم دون تسمية القائل ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ ليشمل أقوال الله تعالى في كتابه، وأقوال الرسل لهم، وأقوال الواعظين من المؤمنين، والحوادث والمصائب المختلفة، مما يفيد كثرة القائلين لهم وتعددهم، وهذا من دقائق البيان وإعجاز دلالات ألفاظه ومعانيه ومقاصده بأدق الكلمات المحققة للمعنى. بينما وَحَّد الله سبحانه وتعالى القول لهم، وهو التقوى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ بما يفيد أن جميع الأقوال تلتقي في لزوم التقوى، وذلك بالحذر والخوف من القادم ﴿ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ احذروا ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي: القادم عليهم، من البعث والحساب والجزاء، ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ وهو ما يتركونه مما عملوا من الذنوب والآثام، والآثار، وما يلتحق بها من الشر أو الخير.

وجملة ﴿ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ تستوعب العديد من الدلالات، وهي على أربعة معاني: أحدها: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ ما مضى من الذنوب ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ ما يأتي من الذنوب. قاله مجاهد رحمه الله تعالى. والثاني: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ مما تقدم من عذاب الله تعالى للأمم ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ من أمر الساعة، قاله قتادة رحمه الله تعالى. والثالث: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ من الدنيا ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ من عذاب الآخرة. قاله سفيان يرحمه الله تعالى. والرابع: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ من أمر لآخرة ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ من أمر الدنيا، فلا تغتروا بها[1] فاستوعبت دلالة النص الكريم جميع دلالات التحذير، التي يجب أن يستوعبها ويحذرها

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٧٣)

المخاطَبُون. وبالرغم على قلة كلماتها إلا أنها استوعبت جميع الأوجه المرادة، مما يبين الأعجاز البياني الذي يساير الإعجاز في الخلق والتدبير، والذي يبين ويؤكد أن القرآن كلام الله الكريم، المعجز المبين الواضح.

ثم بين لهم تبارك وتعالى السبب والعلة لهذا التحذير الذي يجب أن يأخذوه باهتمام شديد، وهو ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ رجاء رحمة الله عَزَّ وجل لكم. أي: لتكونوا على رجاء الرحمة من الله تبارك وتعالى. وإذا قيل لهم ذلك أعرضوا عن القول والموعظة والنصيحة، ولم يستجيبوا لمن ينصحهم ويحذرهم. مما يدل على قوة العناد، والاستكبار على الحق.

بل يؤكد سبحانه وتعالى قوة ذلك الإعراض بقوله عَزَّ وجل عنهم ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فما أن تتكرر عليهم الحجج والبراهين إلا قابلوها بالصد والإعراض. وقد أفاد قوله عَزَّ وجل ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾ التجدد والتكرار لما يأتيهم، كما أفاد قوله تعالى ﴿مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ الكثرة والتنوع، لإفادة المبالغة في الدعوة والنصح والموعظة، وتعدد الحجج والبراهين. ومعنى الآية: الحجة والبرهان. وقد تكرر حرف ﴿مِّنْ﴾ مرتين: الأولى ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ والتي أفادت التوكيد. بينما الثانية: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ إفادة التبعيض، أي بعض آيات الله تعالى، وذلك لبيان كثرة آيات الله تعالى، ومع ذلك فآيات الله تعالى لا يحصيها أحد من الخلق. وفي هذا تعظيم لآياته سبحانه وتعالى. وهي آيات بعضها دال على نبوة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وبعضها على أن القرآن من عند الله عَزَّ في علاه، وبعضها آيات دالة على التوحيد، وانفراد الله عَزَّ وجل بالعبادة والملك، وبعضها بخصوص البعث والنشور، والحساب والجزاء، وغيرها من الآيات العظيمة المبثوثة في الكون وفي الأنفس، وفي الحوادث، وفي المنقول لهم بالقرآن العظيم وسنة وسيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى بأنه على الرغم من كثرة الآيات وتعددها بالحجج والبراهين، إلا أنهم يجحدون ويكفرون، فقال تبارك وتعالى ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ إلا ولم ينتفعوا بها، لصدودهم وإعراضهم، الدال على قوة امتناعهم، مما يبين أن هذا الإعراض هو منهجهم ودأبهم وطريقتهم مع آيات ربهم تبارك وتعالى. فامتناعهم هو امتناع جحود للحقائق. مما يدل على أن الإنسان قد يتعامل مع الحق بالكبر والاستعلاء، مما يستوجب الانتباه لهذه الخصال الذميمة، وترويض النفس للحق وقبوله، والعمل به أياً كان هذا الحق، سواء كان من حقوق الله تعالى أو حقوق غيره من الناس.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن مسالكهم الخبيثة مع من أرشدهم إلى الحق، فإنهم يردون بالاستهزاء والسخرية ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فإذا قيل لهؤلاء الجاحدين على سبيل الحث على طاعة الله تعالى بالإنفاق على غيرهم من الفقراء ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ سؤال استهزاء وسخرية يوجهونه لمن حثهم على الخير، إذ يقول هؤلاء الكفرة للمؤمنين الذين يحثونهم على الخير: كيف نُطعم من لم يُطعمه الله تعالى، فلو يشاء الله لرزقهم. لإفادة المكابرة والعناد والمجادلة بالباطل. فمن حكمته عَزَّ وجل أن أغنى بعض خلقه، وأفقر بعضهم، وأمر الغني أن يعطي الفقير، فابتلى الغني بما فرض في ماله من الصدقة، وابتلى الفقير بالحاجة لغيره، ليظهر من الفقير حكمة الصبر. أيصبر ويدعو ربه أو يسخط. ويبتلي الغني أيمنع ويمتنع عن معاونة الفقير أو يشكر المنعم سبحانه وتعالى فيمد غيره بما رزقه الله تعالى من الرزق.

وفي قولهم ﴿ لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ نفي لأن يكون في أموالهم حق للسائل والمحروم، فقصدوا به الإنكار على من أمرهم، وكذلك فيه إنكار لحكمة الله عَزَّ وجل. وبالتالي هو نوع من التعالي على حكمة الله سبحانه وتعالى. ثم أردفوا قولهم السابق بقول آخر للمؤمنين، وهو ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: إن أنتم أيها المؤمنون في سؤالكم الإطعام والإنفاق لفي جهل وضلال واضح غاية الظهور والوضوح. فوصفوا الحق بالباطل، ووصفوا باطلهم بالحق.

ومن دقائق البيان وفوائده أن ورد القول لهم بصيغة التقليل في لحث ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ بما يفيد أن الحث لهم من المؤمنين ليس على سبيل الإكثار والإلحاح، وإنما على سبيل الإرشاد والاستنهاض نحو المعاونة والمساعدة لغيرهم من الأقارب. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وإذا أُمروا بالإنفاق مما رزقهم الله تعالى على الفقراء والمحتاجين من المسلمين(١) بما يلزمهم بحكم القرابات بينهم من النسب، أي: بين المسلمين وقرابتهم من الكافرين، بدليل ردهم على من حثهم على الإنفاق، بقوله تعالى عنهم ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ كما ورد الحث على سبيل التبعيض، الذي يفيد التقليل، أي: بالقليل مما عندكم من الرزق الذي رزقكم الله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ليس كله، ولا الكثير منه، بل ﴿ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ شيئاً منه، وبعضاً منه، مع ترك تقدير الإنفاق لهم، سواء من حيث الكمية أو النوع. كما فيه تذكير لهم بأن الرزق الذي

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٨١/٣)

عندكم هو تفضل وفضل من ربكم عليكم ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فالرزق منسوب لله تعالى، وأن الذي أعطاكم ورزقكم هو الله سبحانه وتعالى، وبالتالي فإن إنفاقكم هو إنفاق من مال ورزق الله عَزَّ وجل الذي عندكم. وبالتالي هو الذي يخلف عليكم بغيره وأحسن منه سبحانه وتعالى.

وورد جوابهم للمؤمنين بالعناد المملوء بالسخرية ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فَرَد اللذين كفروا على الذين آمنوا بقولهم ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ سؤال يفيد إدراكهم بأن أهل الإيمان يؤمنون بأن الله تعالى هو الرزاق، وأنهم يكفرون بذلك. فكيف نُطعم من لم يُطعمه الله تعالى، فلو يشاء الله لرزقهم. فهو سؤال يفيد العناد، ويفيد أنه لا حق للفقير في أموالهم. بما يدل على موافقتهم على مشيئة الله عَزَّ وجل. فهو الذي شاء أن يجعلهم فقراء. ولو شاء لأطعمهم. فكيف إذاً تنتقلون عن مشيئته سبحانه وتعالى فيما أغناكم به، وأفقرهم منه؟ مما يفيد أنهم استخدموا الحق في إسناد الباطل. ولم يستخدموا الحق في إسناد الحق الواجب. فلا شك أن الله تعالى وزع الأرزاق، ولكن بحكمته تبارك وتعالى جعل للفقير حق في مال الغني، وهو الذي بحكمته أغنى من أغنى، وأفقر من أفقر. ليحصل بذلك الابتلاء والاختبار، وليحصل به الخير من التعاطف والتكاتف والتلاحم، وحتى الفقير مالاً قد يكون غنياً في مقوماته الأخرى، كقوة الجسد، فيعين غيره بما أعطاه الله تعالى من قوة الجسم، وقوة الفهم، وقدرات لا تُعد.

ثم حكموا على المؤمنين بما استنتجوه من فهمهم الباطل ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فلما كان تصورهم فاسد، فإنه بفهمهم الباطل رَكَّبُوا عليه حكماً باطلاً. أي: إن أنتم أيها المؤمنون في سؤالكم الإطعام والإنفاق لفي ضلال واضح غاية الظهور والوضوح. لأن الله تعالى لو يشاء لأغناهم، ولكنه أراد لهم الفقر. مما يفيد أن المقدمات الباطلة يترتب عليها أحكاماً باطلة. وفي هذا بيان لحقائق المكذبين، وكشف لتفكيرهم الضال.

ثم يتمادون في طغيانهم واستعلائهم، فيوجهون سؤالاً للمؤمنين عن الساعة، على سبيل الاستهزاء والاستبعاد لذلك ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فإن كنتم صادقين في قولكم، أخبرونا عن موعد وقوع الساعة والبعث والحساب. فيظهر أن المؤمنين قد تناولوا في وعظهم للكافرين بوجوب العمل للآخرة، وأن هناك بعث وحساب وجزاء، فيتساءلون سؤال استخفاف واستبعاد ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فإن كنتم صادقين في قولكم، أخبرونا عن موعد وقوعه. فيرد الله تبارك وتعالى عليهم ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ ما ينتظر هؤلاء المكذبين إلا نفخة إسرافيل في الصور، فإنها نفخة واحدة، ولكن من شدتها أنها ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ فتأخذهم وهم

في لهوهم يتفاصلون بالكلام فيما بينهم من البيع والشراء وغيره مما يتفاصلون فيه من أمور الدنيا. وهذه هي النفخة الأولى، وهي نفخة الصعق. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه والله أعلم نفخة الفزع، يُنفخ في الصور نفخة الفزع والناس في أسواقهم، ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم. فبينما هم كذلك إذ أمر الله تعالى إسرافيل، فنفخ في الصور نفخة واحدة[١] مما يدل على أن النفخة في الصور تأخذ الناس بغتة، فيتعذر حينها عمل أي شيء، أو قول أي شيء.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بحالهم عند النفخ في الصور ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فلا يستطيع أحد منهم ﴿تَوْصِيَةً﴾ أن يوصي أحداً بشيء، لا بقليل ولا بكثير، بما يفيد قوة الانقطاع، وانتهاء علاقة المنافع وإيصالها بينهم ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ولا يستطيعون الرجوع والعودة لأهليهم من أعمالهم، فلا يستطيعون العودة من أشغالهم الدنيوية إلى منازلهم. بما يفيد أن حركتهم قد توقفت وانشلت، وبما يفيد تحصيل العجز التام والكامل، فيموت كل أحد في مكانه الذي هو فيه.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

ثم يخبر تبارك وتعالى بالنفخة الثانية ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ فبعد النفخة الأولى التي مات بها من كان حياً، تأتي النفخة الثانية، وهي نفخة البعث والخروج من القبور ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ ففجأة إذا بهم من ﴿ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ أي: القبور، فيخرجون منها إلى ربهم سبحانه وتعالى للحساب ثم الجزاء. وأما هيئة مشيهم فهي السرعة ﴿يَنسِلُونَ ﴾ وهو المشي السريع، يخرجون مسرعين، قال ابن كثير: والنسلان هو المشي السريع[٢] مسرعين للحضور بين يدي ربهم تبارك وتعالى، فليس لهم من أمرهم التأني والتأخر ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٨١/٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٨٢/٣)

وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ فبينت الآية الكريمة أنهم كانوا رقاد ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ وقد قيل: إن ذلك نومة بين النفختين. فيقولون عند بعثهم من القبور: ﴿ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ وكلمة ﴿ يَٰوَيْلَنَا ﴾ كلمة توجع وتحسر، فهي تُعَبِّر عن سوء الحال، فيقول هؤلاء الكفرة: يا لسوء حالنا، مبتدئين كلامهم بياء النداء ﴿ يَٰوَيْلَنَا ﴾ للدلالة على قوة تفجعهم، وهول حالهم ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ من الذي أخرجنا من قبورنا، وتم تسميتها بالمرقد ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ لنومتهم بين النفختين، بعد طول عذابهم في القبور. فشعروا براحتهم في تلك النومة بعد ما أصابتهم الأهوال مما كانوا فيه، فتمنوا لو أبقاهم الله تعالى على نومتهم. ولعل في تلك النومة ما تزداد بها الحسرة والتوجع، لتكون نوعاً من العذاب لهم بالمفاجأة المفجعة. قال المفسرون رحمهم الله تعالى: إنما قالوا هذا لأن الله تعالى رفع عنهم العذاب فيما بين النفختين. قال أُبي بن كعب: ينامون نومة قبل البعث، فإذا بُعِثُوا قالوا هذا[١] لينتقلوا بمفاجأة النفخة الثانية من البعث إلى ما هم فيه من السعي لربهم مسرعين مُرغمين. وهو سؤال يدل على المفاجأة التي تعجبوا منها، والتي لا يتمنونها، وكذلك إفادة التحسر والتوجع والندامة بما يرون أمامهم مما أعده الله تعالى لهم. فتمنوا البقاء على نومتهم.

فَيُقَالُ لهم ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ فيجابون على سؤالهم بأن هذا الذي ترون هو ما وعد به الرحمن الذي أخبركم به المرسلون ﴿ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ فقد صدق المرسلون فيما أخبروكم به: بأن عليكم الطاعة، فإنكم عائدون لربكم، فيبعثكم من قبوركم للحساب والجزاء، وكنتم به تكذبون. ولم يتم ذكر القائل لهم بذلك ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ ليستوعب به جميع الدلالات. التي أحدها: أنه قول المؤمنين. قاله مجاهد، وقتادة، وابن أبي ليلى. والثاني: أنه قول الملائكة لهم، قاله الحسن. والثالث: أنه قول الكافرين، يقول بعضهم لبعض: هذا الذي أخبرنا به المرسلون: أننا نُبعث ونجازى، قاله ابن زيد[٢] فدلالتها شاملة لجميع تلك المعاني والدلالات، فيحصل من المؤمنين ذلك القول، ومن الملائكة، ومنهم فيما بينهم. لتزداد الحسرة والملامة في نفوسهم، فكثرة المعاتبين لهم تُوَلِّد قوة الحسرة واشتعالها في نفوسهم، وهو نوع من العذاب. نسأل الله تعالى السلامة برحمته.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٧٥/٦)

(٢) المرجع السابق (٢٧٥/٦)

ثم يخبر الله تعالى عن هول تلك النفخة، فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴾ فما كانت تلك النفخة إلا صيحة واحدة من إسرافيل في الصور ﴿ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴾ فإذا جميعهم قد أُحْضِرُوا عند ربهم، بلا استثناء. للدلالة على سهولة الأمر عند الله تعالى، فلا شيء مستحيل، بل تسير الأمور وفق مراده تبارك وتعالى. حتى يكون في ذلك موعظة لكل إنسان قبل أن يعاين الحقائق القادمة من البعث والنشور والحساب والجزاء. وهذا البيان بما سيكون هو من رحمة الله تعالى بالعباد، حتى يحذروا ويمتثلوا لربهم عَزَّ وجل ولرسولهم محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن كمال عدله، فيقول عَزَّ وجل ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ فمن عدله تبارك وتعالى يبين أنه في هذا اليوم الذي هو يوم الحساب ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ ﴾ الذي هو يوم الحساب ﴿ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا ﴾ فلا تُبخس أي نفس من الأنفس شيئاً، لا بالنقص من الحسنات، ولا بالزيادة من السيئات، فكل نفس بما كسبت من الخير والشر في حياتها الدنيا ﴿ وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ فالجزاء بحسب ما حصدتم أنتم في الدنيا. وفي هذ كمال البيان لعدله عَزَّ وجل، وللحقائق التي سيقدم ويفد إليها الإنسان في الآخرة، فليس هناك شيء إلا أوضحه الله تبارك وتعالى للعباد، وكأنهم يعاينون الآخرة ويعيشونها. مما يفيد أن الله تعالى أراد للعباد جميعاً الخير والسعادة إلا من أبى واستكبر، فكفر بما جاء عن الله عَزَّ وجل.

﴿ إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ٥٦
لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٥٧ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ
٥٩ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ
ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ ﴾

بعد بيان الله عَزَّ وجل لحال الكافرين يوم القيامة، وحالهم عند النفخة الأولى، وحالهم عند النفخة الثانية، ويوم يبعثون، ينتقل السياق بالبيان الكريم بعد ذلك إلى الإعلام والإخبار عن حال المؤمنين يوم القيامة، وما يجدونه من التكريم من الله سبحانه وتعالى. فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴾ ففي ذلك اليوم الذي هو يوم القيامة، فإن أهل الجنة يرتحلون من عرصات يوم القيامة

فينزلون في روضات الجنات، وهم في شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم، فهم في شغل عما فيه أهل النار من العذاب. قال الحسن البصري، وإسماعيل بن أبي خالد ﴿فِى شُغُلٍ﴾ عما فيه أهل النار من العذاب. وقال مجاهد ﴿فِى شُغُلٍ﴾ أي: في نعيم مُعجبون. أي معجبون به. وكذا قال قتادة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فَٰكِهُونَ﴾ أي: فرحون[١] بل ويَنْظَمُ إليهم حلائلهم ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ فأصحاب الجنة الذين هم المؤمنون وكذلك أزواجهم معهم. قال الطبري رحمه الله تعالى عن ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ من أهل الجنة في الجنة[٢]﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ قال مجاهد رحمه الله تعالى: حلائلهم في ظلال الأشجار ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وغيرهم رحمهم الله تعالى: الأرائك هي السرر[٣] ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ لهم في الجنة الفواكه الكثيرة المتنوعة، وأيضاً ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ ما يتمنون ويطلبون.

وكذلك لهم نعيم أعظم وأكبر حين يكلمهم ربهم تبارك وتعالى ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ فيكلمهم ربهم سبحانه وتعالى مسلماً عليهم ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: بالسلام عليهم ﴿قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ قولاً من الرب الرحيم بعباده، فتحصل لهم السلامة التامة الشاملة. وهي التحية العظيمة التي لا أعظم منها، فهي تحية الرب الرحيم، الذي برحمته أحل عليهم رضوانه، وهداهم. واسأل الله تعالى لنا ولجميع المسلمين تلك المنزلة وذلك المشهد في ذلك اليوم العظيم، بفضله وكرمه سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى كشف المزيد عن حال أهل النار، فكما خُوطِب أهل الجنة بالبشارة والخير والنعيم المقيم، يُخاطَب أهل النار بما يستحقون من التوبيخ وتحصيل العذاب المهين ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ انفصلوا وانعزلوا أيها المجرمون، وتميزوا عن المؤمنين، فانفردوا عن الصالحين بالانعزال والابتعاد عنهم. بما يفيد الطرد عما امتاز به المؤمنون، وعن رحمة الله عَزَّ وجل بهم، وبما يفيد والتوبيخ لهم بما كان منهم، من محاربة دين الله تعالى والمرسلين والمؤمنين. فهو انفراد وتميز بضد نعيم أهل الجنة، وهو عذاب النار.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٨٢/٣)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٦٤/١٩)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٨٢/٣)

ثم يلاحقهم اللوم والتوبيخ والتذكير بما كان منهم مع المرسلين من الله تعالى لهم ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ألم آمركم وأوصيكم بطاعة ربكم، وأن لا تعبدوا الشيطان بطاعته، وحذرتكم من ذلك. وبينت لكم أنه عدوكم الواضح الظاهر عداوته لكم؟ وقد بدأ هذا اللوم والتقريع للكافرين بسؤال استفهام، يحمل التقرير بما كان من الله تعالى من أمرهم وإرشادهم للحق، وما كان من هم بمحاربتهم للحق واتباعهم الشيطان الرجيم ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ والعهد هو الأمر والوصية. وبدأ البيان بأداة الاستفهام ﴿ أَلَمْ ﴾ فهو تعليل لهم بصيغة الاستفهام التقريري ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ ﴾ ألم يكن منا الأمر والتوجيه لكم بما يجب عليكم، فأطعتم الشيطان حتى تمثلتم بعبادته، وعصيتم وكفرتم بما جاءكم من الحق الواضح والظاهر المبين؟ ألم آمركم وأرشدكم بالمرسلين من الرسل إليكم يا بني آدم للحق؟ ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ بأن تحذروا الشيطان، ولا تطيعوه فيما يزينه لكم من الكفر والعصيان، فعبادته هي طاعته، وهي كناية عن قوة المتابعة للشيطان. ثم أورد لهم تبارك وتعالى علة وسبب ما نهاهم عنه ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ فعداوته للإنسان واضحة بينة، وذلك بما يوسوسه لهم، ويزينه من الشهوات المحرمة، والشبهات المهلكة.

ومع النهي أمرتكم بما يحقق لكم السعادة والنجاة ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ فوحدوني بالطاعة وإخلاص العبادة. فإن الذي جاءكم به المرسلون هو الطريق الحق المستقيم. فلم يقتصر التوجيه الكريم على النهي فقط، بل كان بياناً بما يجب اتباعه، وهو أن تعبدوا ربكم وحده لا شريك له في عبادته وملكه وتدبيره، وأن هذا الذي جاءتكم به الرسل هو الطريق المستقيم، الذي يوصلكم لسعادة الدارين، ويجنبكم مصارع السوء. كما أن السياق مشتمل على اللوم والتوبيخ لمن عصى. فهو تنبيه وتحذير للحي من البشر، بأن يفهم ويتدارك بقية عمره بطاعة ربه وفق ما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم. وذلك بعبادة الله تعالى ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي ﴾ فإن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ومن قبله المرسلين هو الطريق الحق ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ وهو دين الإسلام. الموصل لمرضات الله تعالى وجناته، والنجاة من عذابه، فهو الدين القويم. فمن أراد الرشاد في غير دين الله تعالى فقد أهلك نفسه بالعذاب والشقاء الذي لا ينقطع.

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ

أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يذكر تبارك وتعالى لعباده الضالين ما يصحح لهم معرفة عدوهم الشيطان الرجيم، الذي نهاهم عن اتباعه، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴾ لقد أضل الشيطان ﴿ مِنكُمۡ ﴾ أي: من جنس بني آدم ﴿ جِبِلّٗا كَثِيرًا ﴾ أي: خلقاً كثيراً، لا يحصيهم إلا الله سبحانه وتعالى من كثرتهم ﴿ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴾ أليس لكم عقول تعقلون بها ما رأيتم في غيركم ممن أضلهم الشيطان عن الحق، بما يستوجب منكم مولاة ربكم وطاعته، وطاعة رسوله صلى الله عيه وسلم.

فتضمن التوجيه الكريم التقريع والتوبيخ من عدم تعقلهم وتبصرهم فيما كان في غيرهم من العبرة والموعظة، مما يُوجب الاعتبار، واستخدام نعمة العقل في التبصر والاهتداء، وليس في تعطيل العقل، ومضادة الحق، باتباعكم للهوى، وما زينه الشيطان لكم من لمعصية. وبدأت الآية الكريمة بحرف التحقيق والتأكيد ﴿ وَلَقَدۡ ﴾ ومسبوقة بلام القسم، لتأكيد الحقائق التي لم يعقلوها بما وهبهم الله تعالى من العقل. كما تضمنت الآية الكريمة التقريع لهم بالسؤال الذي يقررهم بأنهم لم يستفيدوا مما وقع بغيرهم من الضالين الذين أهلكهم الله تعالى بعقوبته لهم. ﴿ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴾ سؤال يستثير التفكر والتأمل. فإن آثار العقوبات واضحة وجلية لكم، مما يستوجب التفكر والتأمل ثم التعقل، بلزوم طاعة ربكم تبارك وتعالى. مما يستوجب منكم ومن غيركم استخدام نعمة العقل، والاتعاظ بالمواعظ من الأحداث والآيات والدلائل الواضحة البينة.

ثم ينقل سياق التوجيه المخاطبين بالبيان الكريم إلى الجزاء الذي يستحقه من عاند وكفر، فقال تبارك وتعالى ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾ فيقال للكفرة يوم القيامة عندما تُظهَر الجحيم لهم ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ﴾ هذه جهنم كما ترونها بأعينكم اليوم ﴿ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾ التي وعدناكم بها إن لم تطيعوا رسولكم، والتي حذَّرتكم منها الرسل، فكذبتموهم. ﴿ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ ادخلوها اليوم وقاسوا وذوقوا عذابها بسبب كفركم وتكذيبكم وإنكاركم لما جاءكم من الحق، واتباعكم الشيطان، وعبادتكم للأوثان. وهو أمر إهانة لهم ﴿ ٱصۡلَوۡهَا ﴾ بما يفيد معايشة عذابها من الاصطلاء والحرق.

ثم يخبر تبارك وتعالى بما يكون من حال استنطاقهم في إثبات ما كان منهم من الكفر والمعاصي ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ ففي هذا اليوم الذي هو يوم الحساب ثم الجزاء، ينتقل النطق إلى الجوارح، فتعترف كل جارحة بما كان منها، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة، حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا، ويحلفون أنهم ما فعلوه. فيختم الله تعالى على أفواههم، ويستنطق جوارحهم بما عملت[1] ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ ففي هذا اليوم من مشاهد الحساب ﴿ نَخْتِمُ ﴾ بأن تُكتم أفواههم كتماً فيمتنع به الكلام منهم، فلا يتكلمون بها أبداً﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ فيطبع الله تعالى عليها بمنعها من الكلام. وفي تعيين ذلك اليوم هو تأكيد لحصوله، وتهويله بما فيه من دقة الحساب، وعظيم العذاب. فيكون بذلك ترهيب وتحذير، ليحصل منه الموعظة الرادعة، التي تعظ الكافر بما يجب عليه، وتربي في المؤمن ضبط نفسه وإرادته بما يجب عليه.

فالموقف يتطلب ختم أفواه الكافرين، وتُستنطق أيديهم بما كان منها ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ ﴾ فتتكلم الأيدي بما اجترحت من السيئات والمعاصي ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ وتشهد أرجلهم عليهم بما كانوا يعملونه. فاعتراف الأيدي إقراراً بما كان منها، وهو أبلغ في إقامة الحجة، وشهادة الأرجل أبلغ في تأكيد ما اعترفت به الأيدي. فهو حجة على ما اعترفت به الأيدي. فاليد مباشرة للمعصية، والأرجل شاهدة بحضورها وانتقالها بها إلى المعصية. وفي هذا من مظاهر الإعجاز ما يبين أن الحكم والملك لله تعالى، وأنه على كل شيء قدير. فَيُنطِق ما يشاء، ويُلجم ما يشاء ومن يشاء. ليظهر كمال القدرة وكمال العدل منه سبحانه وتعالى، وكفى بالله تعالى شهيداً، ولكن لِيُظهر كمال عدله لعباده في الحكم عليهم بما يستحقون.

وفي ذلك تنبيه للعباد بأن الأعضاء التي أُستُخدِمت في المعاصي تتكلم بما كان منها، وتشهد على أصحابها بما كان منهم. وجعل سبحانه وتعالى نطق الأرجل شهادة، لأنها حاضرة لكل معصية، كما أن الأيدي فاعله في كل معصية، وكلاهما إقرار، وفي هذا تيئيس لهم من فاعلية الإنكار، مع إقامة الحجة عليهم من أعضائهم الفاعلة، وبالتالي لن ينتفعوا بإنكارهم لِمَا كان منهم.

وورد في سورة النور ما يخص الذين يرمون المحصنات، فجعل سبحانه وتعالى اللسان يشهد بما اعترف به القاذف على المقذوف من الإثم ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ مما يفيد أن للأعضاء حالات، كل بحسبها. فلهم عذاب في ذلك اليوم الذي تنطق الجوارح بشهادتها بما كان منهم

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٥٨٤)

من أعمال في الدنيا. فكل جارحة تشهد على صاحبها فيما يخصها مما كان منها. فهو عين العدل، وأكمله، مما يجب على الإنسان أن يحذر، فلا غياب لمعاصي الكافرين والمنافقين، ومن يؤذي الناس في أعراضهم، وغير ذلك من المعاصي. مما يُوجب الحذر، وذلك بالانتهاء والكف عن جميع أنواع المعاصي.

ثم يبين تبارك وتعالى كمال سلطانه، وكمال قدرته، فيقول عزَّ وجل ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ ولو أردنا وشئنا لذهبنا بأبصارهم حتى تنعدم فلا يبصرون شيئاً ﴿ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ فبادروا إليه، ولكن ﴿ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ فكيف يبصرون وقد طُمست أبصارهم، فلا يرون شيئاً. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: قال بعضهم: عني بذلك: ولو نشاء لأعميناهم عن الهدى، وأضللناهم عن قصد الحجة. وقال فيما يراه من معناها: ولو نشاء لعاقبناهم على كفرهم، فطمسنا على أعينهم، فصيرناهم عمياً لا يبصرون طريقاً، ولا يهتدون له[١] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها: ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى، فكيف يهتدون؟ وقال مرة: أعميناهم. وقال الحسن البصري: ولو شاء الله لطمس على أعينهم، فجعلهم عمياً يترددون. وقال السدي: ولو نشاء أعمينا أبصارهم، وقال مجاهد، وأبو صالح، وقتادة، والسدي: ﴿ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ يعني الطريق. وقال ابن زيد: يعني بالصراط ها هنا فأنى يبصرون وقد طمسنا على أعينهم، وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ لا يبصرون الحق[٢] وفي هذا إظهار كمال سلطانه عزَّ وجل، وكمال قدرته سبحانه وتعالى، ولكن جعل لكل نفس ما تقوم به الحجة عليها، عدلاً منه تبارك وتعالى.

ولمزيد من تأكيد كمال سلطانه، وعظيم قدرته عزَّ وجل يقول تبارك وتعالى ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ ولو شئنا وأردنا أن نغير خلقهم بالمسخ، لفعلنا ذلك ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ ﴾ بتغيير خلقهم وصورتهم عن ما هي عليه عقوبة لهم، لأن المسخ هو تغيير الخلقة عما هي عليه إلى ما يشاء الله تبارك وتعالى. وتفيد جملة ﴿ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ أي: يكون المسخ على ما هم عليه من حركة وهيئة، فَنُقْعِدُهُم على ما هم عليه من حركة وهيئة، فَيَلْزَمُون حالاً واحداً، فلا يتقدمون ولا يتأخرون عنه. وذلك من خلال إذهاب الله تعالى بقدرتهم على

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/٤٧٤-٤٧٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٥٨٥)

الحركة، فنقعدهم في أماكنهم، فلو أردنا ذلك لفعلناه بهم، فلا يستطيعون المضي أمامهم ولا الرجوع إلى خلفهم. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى في معناها: لو نشاء لمسخنا الكافرين في الدنيا، في مكانهم الذي أظهروا فيه التكذيب بالرسل، فما استطاعوا انصرافاً إلى ما خرجوا إليه، ولا رجوعاً إلى ما أتوا منه، بل لزموا مكانهم[١] فلو شاء الله تعالى لمسخهم في المكان الذي يعصون الله تعالى فيه، فيبقون جماداً على نفس المعصية التي يباشرونها، ولا حركة لهم. مما يفيد أنه قد حقت عليهم كلمة العذاب.

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

يخبر سبحانه وتعالى عن عظيم تصريفه وتدبيره لأحوال الإنسان عندما يطول ويتقدم بهم العمر. فقال تعالى ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ فإن مَن نُمِدُّ ونُطِيلُ له في عمره من الناس، وهو التعمير ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ ﴾ بمعنى إطالة العمر. فإذا أطال الله تعالى عمر أحد من الناس، فإنه يُضعفه ﴿نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ﴾ فنضعف تكوينه وقوته. وسماه سبحانه وتعالى: تنكيس، لأنه إعادة إلى مرحلة الضعف التي كان عليها في صغره. فينتقل من قوة الشباب إلى ضعف الهرم، في الجسم، وفي العقل وفي القوة، والقدرة.

ثم يشد سبحانه وتعالى انتباه الْمُخَاطَبين إلى التفكر والتأمل ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ سؤال استدراك على من لم يستفد من دلائل هذا التدبير. أفلا يعقلون من أن الذي فعل ودبر هذا بهذا المخلوق قادر على بعثهم. مما يبين ويفيد أن من تأمل تدبير الله تعالى في الكون، ومنها مراحل نمو الإنسان، فإنه يدرك أن الله تعالى على كل شيء قدير. مما يلزم الإيمان بالغيب كله، فإن مظاهر الكون تدل على واقع الغيب، بأنه حقيقة كما هي مظاهر الواقع الذي يعيشه الإنسان.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٣٤٥)

ثم ينتقل البيان تدريجياً إلى تصحيح مفاهيم الناس عن رسوله صلى الله عليه وسلم، وعن كتابه القرآن العظيم، فيقول تبارك وتعالى ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ وما علمنا رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم الشعر، نفي قاطع ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ ﴾ فلم يكن شاعراً، ولا يعرف نظمه. فنفى عن واقع الرسول صلى الله عليه وسلم معرفة نظم الشعر، بل ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ فلا يصح منه الشعر، ولا يتأتى له، ولا جِبلّتُهُ تمكنه منه. وبالتالي أبطل وأفسد من افترى عليه نظم الشعر. مما يترتب عليه أن القرآن ليس من الشعر في شيء ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ فإن القرآن الذي معه، ويحمله إليكم، ما هو ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ فما القرآن إلا تذكير ومواعظ ﴿ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ وهو كذلك مُتصف بأنه قرآن واضح مبين؛ بما فيه من الأحكام والتشريع، والمواعظ والعبر، ولأخلاق والآداب، والدلائل والبراهين، والإرشاد إلى الرشاد. وبالتالي فإن القرآن ليس فيه شيء من صفة الشعر. فيكون وصفكم له بالشعر هو محض افتراء. فحقائق الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن تبين وتظهر أن دعواكم هي افتراء خالص.

ثم يخبر سبحانه وتعالى الغاية والهدف من القرآن الكريم ومن إرسال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ لينذر الرسول صلى الله عليه وسلم وبما معه من القرآن ﴿مَن كَانَ حَيًّا ﴾ أي: من كان صحيح القلب، فيقبل الحق، ويترك الباطل. وكذلك متضمن للإنذار ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ ليحذر الناس بالإرشاد، والتنبيه من الشرك، والكفر والمعاصي، وعاقبة من مات على ذلك، فإن هناك بعث وحساب وجزاء، ولكل إنسان ما اكتسب، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ ويحق ويتوجب العذاب على من كفر ولم يؤمن ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ ﴾ أي: كلمة العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ على من أنكر ولم يقبل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وما تضمنه كتاب الله القرآن العظيم. وهذا إنذار لكم أيها الناس جميعاً. وبالتالي تكون الحجة قد قامت على كل أحد من الناس بهذا البيان العظيم.

ثم يتجه تعليم العباد إلى آيات الله تعالى الكونية، من المخلوقات التي يدل خلقها على وحدانية الله عَزَّ وجل، وكمال قدرته، وعظيم سلطانه وقهره ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴾ ألم يتأملوا فيما خلقنا من الأنعام لأجلهم، حتى ينعموا بها، وتتحقق لهم منها مطالبهم. وهو الأمر الذي يُوجب شكر ربهم وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. فإنه سؤال يستثير العقل والعواطف. كيف يقابل العبد

إنعام ربه بالكفر والجحود؟ فإن ما خلقناه من الأنعام هو لأجل الإنسان ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ فأنتم المعنيون بهذه الأنعام التي خلقناه لكم من الأبقار والجمال والأغنام، فأنتم المستفيدون منها، وقد تم ترويضها لكم. وفي هذا تكريم لهذا الإنسان من ربه عَزَّ وجل، مما يستوجب محبتهم لطاعة ربهم تبارك وتعالى، بل نسب سبحانه وتعالى خلق الأنعام له ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ وذلك من باب التكريم بالمبالغة في التفرد والاختصاص بالخلق. مما أبدعناه ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ التي هي البقر والإبل والأغنام ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ قادرون عليها بتسخيرها لهم، أي: فجعلنا هذه الأنعام ممتلكات لهم، بالتسخير الذي يمكنهم من ضبطها والتصرف بها كيف يشاؤون. بما يفيد أننا لم نخلقها متوحشة منهم، لا في طبعها، ولا في هيئتها وخلقتها، بل ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ وجعلناها طائعة لهم ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾ ذليلة لهم، ومتجاوبة لمطالبهم، فلا تنفر منهم ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ فتحملهم، وتحمل أثقالهم، ويتاجرون بها، ويتحصلون بها على المنافع العظيمة الكثيرة. ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ ويتغذون منها، سواء بأكل لحومها، أو بشرب ألبانها، وما يشتقونه من ألبانها.

ومن دقائق الآية الكريمة أن الله تبارك وتعالى لفت انتباه العباد إلى ما خلق من الأنعام بأسلوب السؤال والاستفهام. فبدأ البيان الكريم بلفت الانتباه إليها عن طريق السؤال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ فهو سؤال استنكار وتعجب من حالهم مع الآيات الكونية الظاهرة، وعدم استفادتهم منها. وهو سؤال توقف وتدبر، فأين عقولهم عن هذا التسخير الذي يرونه بأبصارهم وبصائرهم، ويعايشونه مع الأنعام. ليعتبروا بها. وقد شملت الرؤية في قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ المشاهدة البصرية بالعين، ورؤية البصيرة القلبية الدالة على أن هذا التسخير هو آية من آيات الله تعالى على كمال قدرته عَزَّ وجل. مما يفيد أهمية لفت ذهن المتعلم والموعوظ والمدعو إلى المحسوس، ليستدل به على غيره من المحسوسات والمغيبات التي يتم إخباره عنها، وما يتعلق بها من المغيبات، ليرتقي عقله في التحليل والاستنتاج. وهو أسلوب قرآني بديع. إذ جمع بين التقرير والاستفهام والاستنكار والتعجب من جهلهم، وتغافلهم عن المحسوسات الدالة على صدق ما يُخبَرُون به من المغيبات ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ فمن كانت قدرته قد خلقت هذه الأنعام، وهذا التسخير الذي تعيشونه وترونه مع أنعامكم، فإنه قادر على ما يخبركم به من أمور الغيب التي منها البعث والحساب والجزاء، فإنها آيات في غاية العظمة، فمن باب أولى أن يكون قادر على إعادة الخلق بعد الفناء.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بالمزيد من منافع الأنعام، عدا منافع الركوب والأكل. فيقول جَلَّ شأنه ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ كذلك لهم في الأنعام منافع أخرى كثيرة ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ ﴾ منافع غير منافع الركوب والأكل، وهو عموم ما ينتفعون به من أصوفها، وأوبارها، وأشعارها، وجلودها، ثم يصنعون منه الفرش، والأغطية، وبيوت الشعر، وما يتخذونه منها من الدهن، وغير ذلك من المنافع. وكذلك لهم فيها ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ وهو ما يشربونه من ألبانها، من بين حامض، وحلو، وغير ذلك من مشتقات الألبان. ثم تنتهي الآية الكريمة بسؤال استنكار عن عدم مقابلتهم لهذه النعمة بالشكر لربهم عَزَّ وجل الذي خلق ودبر لهم ذلك ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ سؤال استنكار وتوبيخ ولوم على مقابلة هذا الإنعام بالكفر وعدم شكر الله تعالى بطاعته والامتثال لرسوله صلى الله عليه وسلم، ولكتابه القرآن العظيم.

ومن دقائق السياق الكريم أن ورد البيان أولاً بالتخصيص والتعيين للمنافع ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴾ جعلنا هذه الأنعام ممتلكات لهم، بالتسخير الذي يمكنهم من ضبطها والتصرف بها كيف يشاؤون. ثم المزيد من التخصيص بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ وذلك لشد الانتباه بالتعيين والتخصيص للمنافع، ثم أورد سبحانه وتعالى التعميم الذي يستوعب جميع المنافع بقوله تبارك وتعالى ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ﴾ ثم بعد تعداد الإنعام يأتي التنويه بما يجب عليهم إزاء هذا التفضل العظيم ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ وورد بصيغة السؤال الذي يستثير العقل نحو ما يجب للمنعم عليهم من حقوق، وهو الشكر بالقلب واللسان والطاعة، وقد أثبت السؤال أنهم لا يشكرون، فخالفوا ما يجب عليهم، بما يعني وجوب الشكر بالاعتقاد واللسان والطاعة والامتثال لمن أنعم عليهم بهذا الإنعام وغيره من النعم.

بل تجاوزا وانتقلوا من عدم الشكر إلى عبادة غيره، فعبدوا من لا يقدم لهم نفعاً ولا يدفع عنهم ضراً ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ واتخذ هؤلاء المشركون من الأصنام ونحوها آلهة يعبدونها ﴿ لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ رجاء أن تنصرهم إن نزل بهم بلاء، وداهمهم أمر وشر. وقد أثبتت الآية الكريمة أن كل أحد هو من دون الله تعالى ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وبالتالي نفى أن يقوم أحد من دون الله تعالى بما هو له عَزَّ وجل. وكل شيء له تبارك وتعالى. وهو الذي يُمَكِّن العباد بما يشاء.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن عجز تلك الأصنام، واستحالة أن تقدم لهم شيئاً مما يظنون، فقال سبحانه وتعالى ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ فمن دلائل بطلان تلك الآلهة المزعومة أنهم ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ فإن تلك المعبودات عاجزة عن نصرهم. فالاستطاعة على النصر شأن منتفي عن تلك الآلهة المزعومة، فلا تستطيع نصرهم، لأن ليس لها حول ولا قوة، والنتيجة هي ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ أي: والكفار ما هم إلا جند لتلك المعبودات. وأفاد ضمير ﴿ وَهُمْ ﴾ أي: عُبَّاد الأصنام، أي: من يعبدها، وضمير ﴿ لَهُمْ ﴾ أي: للأصنام ﴿ جُندٌ ﴾ أنصار وأعوان، فالعابدون للأصنام هم بمنزلة الجند لتلك المعبودات ﴿ مُّحْضَرُونَ ﴾ يحضرون لخدمتها، أي: يحضرون في الدنيا للدفاع عنها، فهم الذين يدافعون عن أصنامهم، وينتصرون لها، ويغضبون لها في الدنيا. وهي لا تستطيع نصرهم، ولا أن تخدم ذاتها، فإنهم للأصنام بمنزلة الجند. وكذلك تفيد دلالة ﴿ مُّحْضَرُونَ ﴾ أي: محضرون معهم في النار، فلا يستطيعون أن يدفعوا عن بعضهم البعض العذاب. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى أن فيها أربعة أقوال: أحدها: جند في الدنيا، محضرون في النار. والثاني: محضرون عند الحساب، والثالث: أن المشركون جند للأصنام. والرابع: هم جند محضرون عند الأصنام، يعبدونها[١] ويخدمونها. وفي هذا كشف لأنواع الإحضار المتعلق بالمشركين، فاستوفت جميع حالاته وصوره في سياق واحد، وهذا من بلاغة البيان في القرآن، باكتمال الدلالات في سياق واحد.

كما يفيد هذا البيان الرباني نقص عقول من عبد غير الله تعالى، فإنما العابد جندي وخادم لتلك المعبودات التي لا تقدم له نفعاً ولا تدفع عنه ضراً. بل هو الذي يحرسها، وهو الذي يدافع عنها، وينتصر لها، وهي لا تحرك ساكناً. فكيف يكون ذلك من عاقل؟ فإن من يتأمل هذا يتأكد بأن من عبد غير الله تعالى، فإنما هو خادم له، كمن يعبد ميتاً، ويطوف بقبره، ويبذل جهده له، وهذا المعبود من دون الله تعالى لا يستطيع أن يتحرك، ولا أن ينفع نفسه، فضلاً عن أن ينفع غيره.

ثم يتجه الخطاب إلى تسلية النبي صلى الله عليه وسلم فيما يلاقيه من قومه، فيقول تبارك وتعالى ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ فلا يؤثر عليك قولهم، ولا تشغل بالك به، فلا تحزن مما قالوا من الأقوال المشينة في حقك، وحق كتاب الله تعالى، وفي رسالتك وما أُرسلت به إليهم، وعلى صدودهم، وبقائهم على الكفر. لأن من رحمته صلى الله عليه وسلم بالناس أنه يريد أن يُدخلهم في دين الله تعالى، لأنه هو النجاة من العذاب والخزي في الدنيا والآخرة.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٨٢)

والحزن هو متعلق بما كان منهم. ولم يأت هنا النهي عن الهم، لأن الموطن متعلق بما كان منهم، لأن الهم متعلق بالحاضر والقادم، ويزيله التوكل على الله تعالى، وهو الذي كان عليه صلى الله عليه وسلم من التوكل على ربه تبارك وتعالى.

ومن دقائق البيان أن ورد لفظ الحزن بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ ﴾ ليفيد أن ما يكون منهم ومن غيرهم هو شأن مستمر، فلن تنقطع الأقوال المسببة للحزن، ولا الأحداث. وبما يفيد وطِّن نفسك على عدم الحزن من هذا الشأن. مما يفيد أن أحزان الحياة لا تتوقف، ليتعلم المؤمن توطين النفس على مواجهة الحزن وتجاوزه، حتى لا يكون عائقاً ومثبطاً للطريق في مسارات الحياة المختلفة.

وفي تعيين الحزن من قولهم ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ ما يشمل جميع ما يصدر منهم من الكلام المؤذي، سواء من الأقوال ذات الطابع الشركي أو عموم الكفر، وإنكار البعث، وتكذيب الرسالة، وكذلك الأقوال المشينة في حق الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي حق كتاب الله تعالى، وما أُرسل به إليهم، وعلى صدودهم، وبقائهم على الكفر. وفي ذكر القول دون الفعل باعتبار أن القول يدل على ما تحمله الصدور والعقول، وما يتبعه من فِعَال الأذى والتصدي، وهو الجالب للفعل والأساس له. فهو أبلغ في شأن النهي عن الحزن بالمدافعة له. كما أن القول يمثل أكثر أنواع الأذى تداولاً وشيوعاً بين الناس، ويمثل مالا يستطيعون فعله، وأن به تحصل المبالغة في التهجم المؤلم، كالرمي بالسحر، والكهانة والجنون، والشعر والكذب، ليبلغوا به مرادهم من خلال إشاعة ما يريدون لمن يمر بمكة، ومن يسافر منها شمالاً وجنوباً، وشرقاً وغرباً. وكذلك استوعب القول للفعل لأنه الأكبر والأكثر أثراً، والأكثر مصدراً بما يسببه من الحزن.

ثم يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بعلمه عما يصدر عن هؤلاء الكفرة، وبما يُسِرُّونه ويتكتمون عليه من النوايا السيئة ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ فإننا أيها النبي نعلم ما يتكتمون عليه من الإرادات والنوايا التي لم يفصحوا عنها، وكذلك ما يعلنونه من الكفر والتهديد، والأوصاف والردود الرديئة من الكفر وغيره من البهت وذميم الكلام. بما يفيد اطمئن أيها النبي صلى الله عليه وسلم، فسوف نجازيهم، ونصدهم، ونُبطِل مكرهم، ونخذلهم، فلن يتمكنوا مما يريدونه ويعلنونه أو يسرونه وينونه، ويتكتمون عليه في صدورهم.

ومن دقائق البيان أن قدم سبحانه وتعالى علمه بما يسرون على علمه بما يعلنون. لإظهار كمال القدرة وكمال العلم بأدق دلائل عمق المعرفة التي اخترقت صدورهم من النوايا التي يتكتمون عليها. وأن معرفة الأصعب دليل على سهولة الأظهر. وهذه رسالة قوية ليطمئن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون، وتحذير للكافرين من أن شأنهم مكشوف عند الله تعالى، وأن عقابهم والمكر بهم حاصل منه سبحانه وتعالى دفاعاً عن رسوله صلى الله عليه وسلم وعن المؤمنين.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ
قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ
﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ
شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

ثم ينتقل البيان الكريم إلى إظهار عجائب خلقه وقدرته سبحانه وتعالى في جنس هذا الإنسان، فيقول تبارك وتعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ ألم يشاهد هذا الإنسان المنكر للبعث ببصره وبصيرته، كيف بدأ خلقه من نطفة من ماء مهين، وما مَرَّ به من أطوار نموه، ليستدل به على كمال قدرة ربه سبحانه وتعالى. بل أصبح يكابر ويخاصم ويعاند ويكذب الحق وينكره.

وقد بدأ البيان في تراكيب صياغته إلى شد الانتباه بأداة الاستفهام ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ﴾ التي تُشعل وتُشغل الذهن بالتفكر فيما فات المخاطب من عدم انتباهه وإحاطته بما هو قريب منه بالنظر والتبصر. فبدأ البيان الإلهي بسؤال استنكار عن حال المكذبين فيما يرونه من تدبيره عَزَّ وجل، ومقرراً به سبحانه وتعالى حقيقة تدبيره التي تُوجِب عليهم التصديق برسوله صلى الله عليه وسلم، وبالبعث والنشور والحساب ثم الجزاء ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ﴾ فاشتمل السؤال على استنكار تغافلهم، وتجاهلهم لما هو محسوس بالرؤية البصرية، ومُدْرَك برؤية البصيرة، أفلم يشاهد هذا الإنسان ببصره، ويتأمل ببصيرته. إذ في قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ شد الانتباه، بتحريك البصر للنظر والتأمل والتبصر، وكذلك شد بقية الحواس نحو تأمل أطوار خلقه ﴿أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ فأطوار خلقه ممتلئة من عجائب قدرته عَزَّ وجل، بما يدركه هذا الإنسان ببصره وبصيرته مما يعايشه في حياته.

فقد خلق الله تعالى الإنسان من نطفة، فأنشأ وأبدع هذا الإنسان على غير مثال سابق، لأن كلمة ﴿ خَلَقْنَـٰهُ ﴾ تعني الإنشاء والإيجاد والإبداع بما ليس له مثيل، فالخلق إنشاء من العدم، من غير سابق لمثله. وكلمة ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ اسم لجنس هذا المخلوق الذي جعل الله تعالى بقدرته أن تكون مادة خلقه التناسلية ﴿مِن نُّطْفَةٍ ﴾ وهو الماء المهين الضعيف، الذي يخرج من بين الصلب والترائب، فيتنقل في أطوار نموه،

حتى يكون إنساناً كامل الخلقة في صورته وهيئته، فينطق ويتكلم، ويشاهد ويبصر، ويسمع ويفكر، وقادر على الحركة والتصرف، والفهم والأخذ والعطاء، ثم بعد كل هذا الإنعام والإبداع ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ فإذا بهذا الإنسان المتكون من النطفة الصغيرة كثير المناكفة والمجادلة فيما يأمره الله تعالى به، فإنه أمر يدعو إلى التعجب، لأن ﴿ فَإِذَا ﴾ أفادت التعجب من حال هذا الإنسان، الذي بمجرد أنه انتقل من نطفة إلى إنسان كامل فإذا به على عكس ما كان يجب أن يكون عليه من الطاعة والامتثال للحق، فكان منه ذلك الخصام والعناد الذي كان مثاراً للعجب. فمجادلته في توحيد خالقه مثار للتعجب من حاله. بل حتى كلمة ﴿ خَصِيمٌ ﴾ أفادت المبالغة في الخصومة، أي شديد وكثير الخصومة والمجادلة، ثم أكد تبارك وتعالى هذه الصفة بالوضوح والظهور البائن في سلوكه ﴿ مُّبِينٌ ﴾ فخصومته ومجادلته بينة واضحة جلية. وكلمة ﴿ مُّبِينٌ ﴾ تُعطي دلالة النطق والكلام، وأنه مبين ومُظهر ومجاهر بخصومته. فتعطي الإفصاح والوضوح في جداله وبيانه عما في نفسه وتفكيره. وفي هذا غاية البلاغة البيانية في معاني ودلالة اللفظة التي بينت حال هذا الإنسان في منطوقه وتفكيره، وكذلك في مجادلته مع خالقه تبارك وتعالى. فلو تأمل في أطوار حياته لكان مطواعاً لربه سبحانه وتعالى. مما يُوجب على الإنسان أن يتأمل في نفسه، فإنها تحمل دلائل إثبات الغيب وصحة ما أخبر الله تعالى به من خلال رسوله صلى الله عليه وسلم.

فعجيب هذا الإنسان المخلوق من نطفة ضعيفة وصغيرة في حجمها وشكلها، ثم تتحول في تدرج عجيب إلى إنسان بكامل قواه، وفي أحسن تقويم، ثم تحصل منه بعد ذلك المخاصمة الواضحة. ويصر على الشرك والكفر، والتكذيب بالبعث وبالمرسلين. بما يفيد أن إدخال الشرك أمر مخالف لآيات تكوين الإنسان الجسمي، ولتكوينه الفطري، فيعصي من أنعم عليه بالإنشاء والإيجاد، وأمده بوسائل التعلم والفهم والتلقي. فلو فكر هذا الإنسان في وجوده، وأطوار تكوينه لأدرك أن الله تعالى وحده هو الذي خلقه، وهو الذي يميته، وأن مَن خلقه من تلك النطفة قادر على إعادته بعد موته، فليس الإعادة بأصعب من الإنشاء ابتداء. فهو استدلال قائم على الحجة من كل وجه. مما يبين أن دين الله تعالى حق، وأنه قائم على الأدلة والبراهين الظاهرة الواضحة. وأن منهجه منهج علمي، يُعلِّم أتباعه كيف يُوصِلُون دين ربهم للناس بالأدلة العلمية الظاهرة في أنفسهم، وفي الكون كله.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأن هذا الإنسان الذي لم يستفد من أطوار خلقه ليدرك عظمة الخالق، وأن ربه على كل شيء قدير، وما يترتب على ذلك من وجوب طاعته والاستجابة للمرسلين، فإن جهله قد بلغ به أنه يتطاول على ربه وخالقه، فيضرب مثلاً في غاية الغرابة، بسبب عمق جهله واستكباره على الحق، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ فاستكمالاً للتعجب من حال هذا الإنسان، وتفكيره الخالي من عدم الاستفادة من آيات ربه الكونية، ومن أطوار خلقه، وأصل خلقته

من نطفة من ماء مهين، فإنه يُورد في شأن ربه مثلاً غريباً ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾ فاستخرج هذا الإنسان مثلاً، وضربه لقدرة ربه سبحانه وتعالى، بما يتنافى مع عزته وقهره وعظيم سلطانه، بما يفيد أن شأن هذا الإنسان الذي يُصر على كفره، فإنه محل تعجب بما نطق وتفوه به. لسوء فهمه، وسوء منطقه، وضحالة تفكيره. فيضرب لله تعالى المثل، وينسى أطوار خلقه، ومنشأه من النطفة ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ أي فلم يتفكر في خلقه، الذي يدل على عظمة خالقه سبحانه وتعالى. والنسيان هنا، هو المعبر عن شدة انحرافه، وعدم التفاته لأصل وأطوار خلقه، وكأنما نسي أصل خلقه، وآية أطوار حياته، وأخذ يتعالى على الحق.

وضرب المثل من هذا لإنسان لربه تبارك وتعالى هو: أنه ضرب للبعث مثلاً لا ينبغي له أن يضربه بقياس باطل ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ فقاس قدرة الخالق على عجز المخلوق، ونسي في المقابل إيجاده، وأصل خلقته من نطفة صغيرة، من ماء مهين. فيقول تعجيزاً ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ سؤال استنكار واستبعاد من أن يكون هناك قادر على أن يعيد العظام بعد أن أصبحت ﴿رَمِيمٌ ﴾ أي: بالية. فاستبعد قدرة الله تعالى العظيمة من أن تعيد الإنسان إلى حاله بعد أن أصبحت عظامه بالية متهالكة، ناسياً عظمة خلق جنس الإنسان. بما يفيد لو تأمل فقط في خلقه من نطفة لأدرك أن الله تعالى على كل شيء قدير، فالذي جعل من النطفة إنساناً ناطقاً ومتحركاً، وذو رأي، وبصر وسمع وبصيرة، فإنه لا يعجزه إعادته بعد موته. مما يدل على الجرأة في ضرب المثل، مع بطلانه من كل وجه.

وقوله تعالى ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ هو توبيخ وتعيير للإنسان الذي هذا تفكيره، وكذلك هو تهوين من شأنه، وتعجب من ضحالة تفكيره، واستنكاراً واستنقاصاً لعقله وفهمه، بما ضربوه من الأمثال التي تضاد الحقائق البينة الواضحة. وضرب المثل هو بيان الأشباه، فشبهوا قدرة الله تعالى بقدرة الإنسان العاجزة. فأبعدوا وابتعدوا بمنطقهم عن الصواب، وجانبوه، ودخلوا في الباطل.

ولما أن ما ضربوه باطلاً، فإن في ذلك كشف بأنهم منكرون ومُسْتَبعِدُون للبعث والحساب والجزاء. بل هو دليل على ما هم فيه من التيه. الذي نتج عنه ضلالهم في الكفر. فاحتاروا في متاهات الضلالة حتى بلغ بهم الأمر أنهم يقيسون قدرة ربهم الخالق على قدرات المخلوقين، وبالتالي لا يستطيعون الوصول إلى طريق الرشاد والهدى والسلامة. مما يدل على انغماسهم في الكفر، وأنهم تاهوا في بحره ولجحه. وفي هذا البيان ما يفيد ويبين أهمية التفكير الصحيح، والقياس الصحيح. وأن لا يضرب الإنسان المثل لله تعالى، لأنه العزيز الخالق المالك المتصرف، والقاهر فوق عباده، وله المثل الأعلى. قال تعالى في سورة النحل ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾ مما يستوجب على الإنسان أن يقف عند حدوده، فلا يتجاوزه إلى جلال الله عَزَّ وجل.

ثم يبين تبارك وتعالى الإجابة المفحمة لمن قصر تفكيره عن استيعاب أطوار خلقه، وأصله الذي كان منشأه منه ابتداء. فقال عَزَّ وجل ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ قل لهم يا أيها الرسول ﴿يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ فالذي أنشأ الإنسان ابتداء من غير سابق له، فإنه هو الذي يعيده للحياة، فمن استطاع بقدرته على النشأة الأولى من نطفة فإنه قادر بلا شك على النشأة الثانية، فليس هناك ما يمنع. لأن قدرة الابتكار تدل على قدرة الإعادة. ثم يؤكد ذلك سبحانه وتعالى بكمال علمه ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ فإن ربكم وخالقكم بكل شيء من خلقه عليم به غاية العلم وأكمله، فلا يخرج عن علمه شيء أبداً من الخلق.

ثم يتدرج الاستدلال إلى خلق الأشجار الخضراء، وجعلها بعد رقتها واخضرارها وليونتها يابسة ليُوقِد منها الإنسان النار ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾ فربكم عَزَّ وجل هو الذي مكنكم من إيقاد النار وإشعالها من الشجر الأخضر ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا﴾ فيؤكد سبحانه وتعالى الاستدلال السابق من خلق الإنسان باستدلال آخر على كمال قدرته عَزَّ وجل، وهو إيجاد التضاد بين رقة الشجر، وبين إيقاد النار، لترسيخ وتأكيد الحقيقة بحقائق الخلق والتكوين، بما ينفي غرابة إعادة الإنسان وبعثه بعد موته. فأوجد الضد، والتي هي النار من الأخضر اللين الرقيق. ولذلك ورد التوصيف للشجر بما هو عليه من الليونة والرطوبة فلم يكتف البيان بلفظة الشجر، وما تدل عليه، بل عمد إلى المقصود أصلاً وهو الاخضرار ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ﴾ فالأخضر هو المعبر عن الرطوبة التي هي ضد الاشتعال. فإنكم بقدرته عَزَّ وجل تُشعِلُون من هذا الشجر الرطب تلك النار الحارقة ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا﴾ ونوه تبارك وتعالى بأنه هو الذي جعل ذلك ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ﴾ بل ومن كرمه سبحانه وتعالى أن نوه بأنكم أيها الناس، أنتم المقصودون بهذا التسخير العجيب ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم﴾ فالضمير في ﴿لَكُم﴾ يبين العناية بالتخصيص لكم أيها الناس، مما يوجب عليكم الشكر لربكم بالطاعة والامتثال. ثم يُظهر لهم كمال القدرة في التحول ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾ فإذا أنتم تُوقِدُون ناراً من ذلك الشجر الأخضر الرطب، وذلك لقضاء حوائجكم منها، بالطبخ، وغليان الماء، والتدفئة، وغير ذلك من لوازمكم.

فإنه إنعام، مما يستوجب طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، والاستجابة لما دعاكم إليه من طاعة ربكم. وأن تجعلوا من عظيم قدرة ربكم الدليل القاطع والمؤكد على ما يخبركم به من الغيب.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء، حتى صار خضراً نضراً، ذا ثمر وينع، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً، تُوقد به النار، كذلك هو فَعَّال لما يشاء، قادر على ما يريد، لا يمنعه شيء[١] فالذي جعل خاصية قبول اشتعال النار في ذلك الشجر بعد أن صار حطباً فإنه دليل على كمال قدرته سبحانه وتعالى، لتنتفي وتزول الغرابة عند من اعتقد استحالة أن يعيد الله تبارك وتعالى الإنسان للحياة بعد أن أصبح رميم. وفي هذا بيان لكمال قدرة الله تعالى، فهو فعال لما يريد. كما يفيد هذا البيان أن دين الله تعالى قائم على الحقائق، وقائم على التعليم الذي يعتمد على إيصال الحق للإنسان بأدق الأدلة والآيات. مما يعلم المسلم طريقة الاستدلال، ويفتح ذهنه على الحقائق، ومواجهة المعرضين بأدق الأدلة الباهرة، بأن الله تعالى خالق كل شيء، وعليم بكل شيء، وأن الحق فيما جاء عنه سبحانه وتعالى. وأن القرآن حق، وهو كلام الله تعالى، وأن محمداً رسوله صلى الله عليه وسلم إلى الناس أجمعين.

ثم بعد الاستدلال بخلق الأشجار الخضراء، وجعلها بعد رقتها واخضرارها وليونتها يابسة فيوقدون منها النار، يتدرج الاستدلال إلى خلق السماوات والأرض ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فالذي خلق السماوات والأرض التي هي أعظم من خلق الإنسان، والأشجار والدواب فإنه كما خلقها ابتداء فإنه قادر على أن يخلق مثلها، بما يبين لكم كمال القدرة، وبالتالي يكون كمال القدرة كذلك في إعادة خلق الإنسان. فإين الاستحالة إذاً؟ فما هي إلا أوهام في عقول من لم يفكر في عظيم مخلوقات الله تعالى، وكمال تسخيره.

وورد البيان بصيغة السؤال الذي يقرر القدرة الربانية، وهو كذلك السؤال الذي يستثير الذهن نحو التفكير. وهو السؤال الذي يثير التعجب من حالهم أمام عظمة الكون. فإن كل عاقل يقول بأن الله تعالى قادر على أن يخلق مثلها. ثم يؤكد ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ جواب منه تبارك وتعالى مباشرة عن كمال قدرته عَزَّ وجل، لأنه ليس هناك جواب غيره يمكن أن يقوله الإنسان. فأورده عَزَّ وجل على الحقيقة التي لا يختلف فيها وحولها الإنسان. وبدأ الجواب بحرف ﴿بَلَىٰ ﴾ الذي أفاد إثبات وتقرير القدرة الربانية، والجزم بها، ونفي عدم القدرة بتاتاً. ثم أكد بأسلوب المبالغة أنه سبحانه وتعالى هو الخالق العليم ﴿ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فهو عزّ وجل لا غيره ﴿ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فقد حصر سبحانه وتعالى الخلق والعلم له

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٨٩/٣)

بالضمير ﴿وَهُوَ﴾ الذي أفاد مع ما بعده حصر وقصر الخلق وكمال العلم له تبارك وتعالى. وأفادت بنية كلمتي ﴿ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ المبالغة في ذلك، بامتداد المعنى إلى أقصى غايته. فهو المبالغ فيما يخلق، من التكوين والهيئة والنظام والبهاء والجمال، والتسخير، وما يمنحه للمخلوق من القدرات، وغيرها مما يشاء سبحانه وتعالى، فليس لقدراته عَزَّ وجل حد محدود، بل هي مطلقة. وكذلك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ فإن بنية الكلمة تفيد كمال المبالغة في العلم الذي لا يغيب عنه شيء أبداً، حتى ما يكون في الضمائر، والسرائر، والنوايا. فلا غيب على الله تعالى. فمن كانت هذه صفاته العظيمة، كما يراها الإنسان في نفسه، وفي جنسه، وفي مخلوقاته تبارك وتعالى، فإنه يستوجب الرهبة من قوته وقدرته سبحانه وتعالى، وكذلك الرغبة في رحمته التي منها تسخيره للإنسان ما يحتاجه لحياته. فاستوجب ذلك الإيمان بالغيب الذي منه البعث والحساب والجزاء. فالحمد والشكر على نعمائه سبحانه وتعالى. وسبحان الله العظيم.

وبعد أن أظهر جَلَّ جلاله أنواعاً من مظاهر قدرته يؤكد تبارك وتعالى شمول قدرته عَزَّ وجل لكل شيء، فقال سبحانه وتعالى ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فإنما أمر ربكم سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً أن يقول له ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فبمجرد قوله للشيء ﴿كُن﴾ فإن الاستجابة تحصل مباشرة ﴿فَيَكُونُ﴾ فيكون ذلك الشيء كما شاء وأمر وأراد سبحانه وتعالى. فيأمر بالشيء أمراً واحداً، فلا يحتاج إلى تعديل، ولا إلى تكرار الأمر، بل إنها السرعة في الامتثال بالتكوين كما أراد سبحانه وتعالى من غير زيادة ولا نقص. ليتأكد بذلك سهولة إحياء وبعث جميع من في القبور في لحظة واحدة.

وكلمة ﴿إِنَّمَآ﴾ أفادت الحصر الذي يفيد تعظيم القدرة الخاصة بالله تعالى، وأن هذا لا يكون إلا من الله تعالى فقط، فلا يشاركه ولا يماثله فيه أحد من خلقه، فقصرت وحصرت ﴿إِنَّمَآ﴾ تكوين وتَكَوُّن الشيء وجوداً أو حدثاً أو إزالة على مجرد قوله تعالى ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ كما أفادت ﴿أَمْرُهُۥٓ﴾ وجملة ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ﴾ أن الله تعالى لا يحتاج أن يعمل شيئاً حتى يكون الشيء، بل مجرد القول لما يريد بكلمة ﴿كُن﴾ ﴿فَيَكُونُ﴾ وفق مشيئته. فما أعظم عظمة الله تعالى، فقد تعالت وسمت. وأفادت الآية الكريمة أنه لا شيء يمتنع عن إرادته عَزَّ وجل. وفي إطلاق كلمة ﴿شَيْـًٔا﴾ أفادت العموم المطلق، لتشمل جميع ما أراده سبحانه وتعالى وما يريده مما هو كائن وما سيكون إذا أراده الله عَزَّ وجل.

ومن دقائق البيان الرباني أنه سمى سبحانه وتعالى ما يقع قبل وقوعه بالشيء ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا﴾ لأنه بمنزلة ما قد حصل، وفي حكم الموجود، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فإن قيل: كيف سمى الشيء قبل وجوده شيئاً؟ فالجواب: أن الشيء وقع على العموم عند الله تعال قبل الخلق، لأنه بمنزلة ما قد عُوينَ وشُوهِد[١] وفي هذا قوة بيانية عظيمة، تتوافق مع قوة إرادته جَلَّ جلاله، وعظيم أمره وسلطانه. كما أن هذه الآية الكريمة تُعلم الإنسان عظمة الله تعالى، وعظمة قدرته، وقوة سلطانه، وسرعة تحقق ما يقضي به عَزَّ وجل، وألا يقيس الإنسان قدرة الخالق على المخلوق، فإن الله تعالى ليس كمثله شيء.

ثم يختم الله تبارك وتعالى هذه السورة العظيمة بتنزيه ذاته، وتعظيمها، وتعظيم إرادته، وقوة سلطانه، وعظمة ملكه جَلَّ جلاله، فيقول عَزَّ وجل ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فتنزه وتقدس الله سبحانه وتعالى عن كل نقص وعيب، وعن الشريك والعجز، فإن لفظة ﴿فَسُبۡحَٰنَ﴾ تفيد التنزيه، وبالمقابل إثبات الكمال والعلو والرفعة والقدرة والسلطان والقهر والعزة، وحقيقة جميع أسماء الله تعالى وصفاته عَزَّ وجل. وتؤكد الآية الكريمة ما سبق من بيان كمال الملك والمشيئة والقدرة ﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فهو المالك لكل شيء، والمتصرف فيه بما يشاء، وكيف يشاء، ومتى ما يشاء. والملكوت في كلام العرب كما قال الشوكاني رحمه الله تعالى: لفظ مبالغة في الملك كالجبروت والرحموت[٢] فهي دلالة على أن الكون كله ملك لله تعالى، فلا شريك له في ملكه عَزَّ وجل.

ثم يخبر ويؤكد سبحانه وتعالى أن مرجع العباد إليه ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فإليه تصيرون وتُرَدُّن بعد مماتكم أيها الناس. لإفادة تحقق البعث والنشور، والحساب والجزاء، فانتبهوا، واتعظوا بما جاءكم من الحق أيها العباد من رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم. والزموا الطاعة والامتثال لربكم جَلَّ جلاله، وتقدست اسماؤه وصفاته سبحانه وتعالى.

تم بحمد الله إتمام سورة: يس، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢٧/٤)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٨٤/٤)